

المستعمرات الألمانية في فلسطين للدكتور علي محافظة

(الجامعة الأردنية)

الغاية من هذا البحث دراسة المستعمرات الألمانية في فلسطين منذ تأسيس أولها عام ١٨٦٨ وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨. وتعالج هذه الدراسة الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت وراء إنشاء هذه المستعمرات، ومدى صلتها بالمخططات السياسية الألمانية في الدولة العثمانية. كما تتناول طبيعة العلاقات بين المستعمرين الألمان والسكان العرب، من جهة، وبينهم وبين المستعمرين اليهود، من جهة أخرى. وتستعرض أيضاً موقف السلطات الرسمية العثمانية من هذه المستعمرات.

مشاريع استعمار فلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر:

فتحت حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام (١٧٩٨-١٨٠١) باب الصراع الدولي في الشرق العربي على مصراعيه. وأطلقت العنان لمخططي السياسة الاستعمارية في أوروبا، فقدموا مشروعات عديدة ترمي إلى تجزئة الدولة العثمانية واقتسام ممتلكاتها، في وقت بلغ الجشع الاستعماري، مع انتشار الثورة الصناعية، أوجه. وكانت فلسطين بحكم موقعها الجغرافي والاستراتيجي وأهميتها الدينية هدفاً لمخططي هذه السياسة. فمنذ عام ١٨٠٠ نشر الكاتب البريطاني جيمز بيتشينو James Bicheno كتاباً بعنوان *The Restoration of Jews*، دعا فيه إلى تجميع يهود العالم في فلسطين، تحقيقاً للنبوءات التوراتية، وسعياً إلى حل الأزمات التي تجتاح الدول المسيحية والدولة العثمانية. وعلق بيتشينو آمالاً واسعة على فرنسا النابليونية لتحقيق هذا

المشروع. غير أن مبادرة نابليون بجمع "مجلس أعلى" لليهود لاستغلاله كأداة سياسية، منيت بالفشل. ولذلك اتجهت الأنظار إلى الدول البروتستانتية (بريطانيا وبروسيا) لتحقيق هذا المشروع. ولقيت آراء بتشينو صدى واسعاً في بريطانيا، وأعيدت طباعة كتابه السابق الذكر عام ١٨٠٧^(١).

وقد أعجب بالفكرة اللورد أشلي Lord Ashley الذي أخذ يدعو لها منذ خريف عام ١٨٣٨. وفي رأيه أن جمع اليهود على أرض فلسطين سيكون خطوة أولى نحو تنصيرهم، كما أن استعمار فلسطين ضرورة للاقتصاد البريطاني الذي شهد آنذاك ازدهاراً وتوسعاً نتيجة للثورة الصناعية. وبضغط من أشلي قبل قريبه اللورد بالمرستون Lord Palmerston رعاية عودة اليهود إلى فلسطين، وحماية الحكومة البريطانية للمقيمين منهم في الدولة العثمانية. وكان للكتاب الذي ألفه اللورد ليندسي Lord Lindsay و صدر عام ١٨٣٨ "Letters on Egypt, Edom and the Holy Land" رسائل عن مصر وايدوم والأرض المقدسة، والذي تضمن تحبيذه لفكرة جمع اليهود في فلسطين، صدى واسع في نفس اللورد أشلي. فقام الأخير بجمع الأموال لتنفيذ مشروع جمع اليهود على أرض فلسطين^(٢).

أثار المشروع اهتمام الحكومة البريطانية والصحافة اللندنية. فقد تناولت صحيفة التايمز Times في عددها الصادر في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٣٩ الأفكار الرئيسية التي نادى بها أشلي وأيدت "حق الشعب اليهودي في العودة إلى فلسطين". وربطت المسألة اليهودية بالأزمة السياسية القائمة بين محمد علي باشا والسلطان العثماني^(٣). أما وزارة الخارجية البريطانية فقد أصدرت في ٣١ كانون الثاني ١٨٣٩ تعليماتها إلى W. T. Young نائب القنصل المعين حديثاً (١٨٣٨/٩/١٩) في القدس لبيسط حمايته على كافة اليهود المقيمين في فلسطين^(٤).

ونشأت في الوقت نفسه حركة بين اليهود في بريطانيا تدعو إلى استعمار فلسطين. ففي ربيع عام ١٨٣٨ زار موسى مونتفيوري (Moses Montefiore)^(٥)، الثري والمحسن اليهودي، فلسطين، وعرج على مصر لمفاوضة محمد علي باشا في مشروع يرمي إلى تأجير منطقة الجليل (نحو ٢٠٠ قرية) له لمدة خمسين سنة، وأن يدفع له مقابل ذلك أجراً سنوياً. وكان في نية مونتفيوري أن ينشئ شركة استعمارية في بريطانيا، في حالة موافقة محمد علي باشا على مشروعه، من أجل تشجيع يهود أوروبا على الهجرة إلى فلسطين. غير أن مباحثات مونتفيوري مع محمد علي باءت بالفشل، عندما أكد والي مصر أنه لا يستطيع التصرف بأرض لا يملكها. واستمر مونتفيوري في نشاطه دون جدوى؛ وزار فلسطين سبع مرات بين عامي ١٨٢٧ و ١٨٧٥^(٦). كان مشروع مونتفيوري هذا مقدمة للمشروع الصهيوني الذي مرّ بمراحل عدة طوال القرن التاسع عشر.

وبعد جلاء قوات محمد علي عن بلاد الشام، اقترح هلموت فون مولتكه (Helmuth Von Moltke) الكابتن في الحرس الملكي البروسي، الذي عمل بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٩ في إعادة تنظيم الجيش العثماني^(٧)، مشروعاً آخر لاستعمار فلسطين. وورد هذا المشروع في مذكرات فون مولتكه التي نشرها في صحيفة (Augusburger Allgemeine Zeitung) عام ١٨٤١ تحت عنوان: "ألمانيا وفلسطين Deutschland und Plasestina". وقد شرح الضابط الألماني مشروعه هذا بتفاصيل دقيقة أثارت اهتمام الرأي العام الألماني والأوروبي. وينص المشروع على إنشاء "مملكة القدس" لتجعل من فلسطين مركزاً متقدماً للحضارة الأوروبية، وأنموذجاً للتطور الاقتصادي في الشرق، ودولة واقية بين مصر وسورية في حالة قيام مملكة وراثية في مصر، تحول دون أي اعتداء على الدولة العثمانية، وجسراً يربط أوروبا بالقارة الهندية. ويرى مولتكه أن قيام هذه المملكة سيكون بعثاً للتقاليد والقيم الصليبية، ونصراً معنوياً عظيماً تحققه المسيحية في العالم. واقترح

أن يكون على رأس هذه الدولة أمير ألماني يتمتع بسلطة مطلقة، ويتّصف بروح متسامحة. فهو يرى أن اعتلاء أمير ألماني لعرش مملكة القدس، سوف يبعد فلسطين عن تأثير المنافسات السياسية القائمة آنذاك بين الدول البحرية الأوروبية. كما أن تمتعه بسلطة مطلقة سيساعد في فرض النظام على بلد متخلف لم يبلغ سكانه بعد مستوى حضارة اليونان، الذي تؤهله للمطالبة بالحكم الذاتي^(٨). هذا وتحمس لمشروع مولكته ملك بروسيا، فريدريش فيلهلم الرابع (Friedrich Wilhelm IV) وتبناه، فعرضه على ملوك أوروبا فلم يقبلوا به^(٩).

وبقيت فكرة استعمار فلسطين تشغل بال العديد من رجال الدين والسياسة والاقتصاد في أوروبا؛ غير أننا سنقتصر على هذه المشروعات التي كانت تمهيداً للمشروع الاستعماري الألماني، الذي بدأ تنفيذه في نهاية الستينات من القرن التاسع عشر.

جمعية الهيكل الألمانية واستعمار فلسطين

تعود جمعية الهيكل الألمانية (Deutsche Tempelgesellschaft) في أصولها إلى حركة الأتقياء Pietismus التي ظهرت في ألمانيا في القرن السابع عشر، كحركة دينية إصلاحية في الكنيسة الإنجيلية، أكدت على دراسة الكتاب المقدس، وعلى الخبرة الدينية الشخصية. واستمرت هذه الحركة الدينية حتى مطلع القرن التاسع عشر، وتركزت حول تيوزوفن بينجل Theosophen Bengel، الذي بشر بقيام مملكة الرب وعودة المسيح إلى الأرض في أعقاب كوارث مريعة تنجم عن الابتعاد عن الروح المسيحية. ودعا بينجل كلّ تقي أن يبحث له عن مكان في الشرق، لقرب قيام مملكة الرب هناك. ورأى بينجل وأتباعه في نابليون بونابرت الشيطان المناهض للمسيح. ومع نهاية نابليون، اعتقد بينجل أن لا بد من

مرور بعض الوقت حتى تتم التغييرات الكبرى. وتوقع أن تتم عودة المسيح عام ١٨٣٦.

وفي عام ١٨١٧ حلت مجاعة بمملكة فورتمبرغ Wurttemberg، فانتهز بينجل هذه الحالة، ودعا أتباعه إلى الهجرة إلى الشرق. فهاجر آلاف الفلاحين من هذه المملكة إلى جنوب روسيا، حيث رحب بهم القيصر إسكندر الأول. واعتقد كثيرون منهم أن ترحيب القيصر الروسي نداء إلهي لا بد من تلبيةه. وتمت هجرة هؤلاء الألمان تحت إشراف البارون فون بيركهيم Von Berkheim. وسمح لهم القيصر بإدارة شؤونهم إدارة ذاتية.

أما مملكة فورتمبرغ فقد رأت في هجرة مواطنيها خطراً يهددها، لذلك لجأت إلى مختلف الوسائل للحيلولة دون هجرتهم. وتقدم النائب العام في المملكة باقتراح على حكومته ينص على السماح لهؤلاء المتدينين بتشكيل جمعيات خاصة بهم، تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي. قبلت حكومة فورتمبرغ هذا الاقتراح، وتشكلت أول جمعية دينية في فورتمبرغ على يد غوتليب هوفمان G. M. Hoffmann، رئيس بلدية ليونبرغ Leonberg في تشرين الأول عام ١٨١٨. وفي صيف عام ١٨١٩ بدأ أعضاء الجمعية الجديدة بالاستيطان في قرية من أملاك الفارس كورنتال Kornthal، قرب مدينة شتوتجارت Stuttgart، وبنوا منازل لهم عليها مع دار للاجتماعات العامة^(١٠).

في كورنتال ترعرع ابنا غوتليب هوفمان: فيلهلم (الأكبر) وكريستوف، وتربيا تربية دينية؛ فحصل الأول على منصب ديني رفيع في بلاط ملك بروسيا، وهو منصب قسيس البلاط Hof prediger، بينما ورث الثاني، الذي يصغره بتسع سنوات، أباه في رئاسة الجمعية الدينية^(١١). درس كريستوف الفلسفة والتاريخ في جامعة توبنجن Tuebingen. واشتغل في التعليم. ولما اشتد ساعد الحركة

العلمانية المناهضة للمسيحية في ألمانيا، في الأربعينات من القرن التاسع عشر، برزت هذه الجمعية الدينية للدفاع عن المسيحية، معتبرة المبادئ المسيحية الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها الإصلاح الاجتماعي في ألمانيا. وتولى كريستوف مهمة الدفاع عن هذا الاتجاه الديني. وأصدر في أيار عام ١٨٤٥، بالتعاون مع صديقه عمانويل باولوس Immanuel Paulus، الصحيفة الأسبوعية Die Sueddeutsche Warte للتعبير عن هذا الاتجاه المسيحي الإصلاحى^(١٢).

وجاءت أحداث عام ١٨٤٨ الثورية في ألمانيا، فأدخلت الرعب في قلب كريستوف هوفمان. وتأكد له من أحداث ذلك العام الرهيبة أن "مسيحية الكنيسة مقتصرة على الوعظ الديني المجرد من الحياة، وأنها قائمة على قوة العادة، وعاجزة عن وقف التفكك والانحلال". ووجد أن "المسيحية قد تخلت عن مهمتها الأساسية الروحية، وغاصت في أحوال المادية، وتمسكت بالقشور الخارجية". ورشح نفسه في ذلك العام عن مدينة لودفيجزبورغ Ludwigsburg في الانتخابات العامة للبرلمان الاتحادي الألماني "البندستاغ Bundestag"، الذي كان مقره مدينة فرانكفورت على الماين. وكان على مملكة فورتمبرغ أن تقدم ٢٨ نائباً عنها إلى ذلك البرلمان. فاز هوفمان على خصمه مرشح الأوساط الليبرالية العلمانية، فكان النائب الوحيد في البرلمان الاتحادي الألماني الذي يمثل حركة الأتقياء الألمان^(١٣).

وجد هوفمان في الاتجاهات الليبرالية والثورية، التي لقيت من يعبر عنها ويمثلها في برلمان فرانكفورت، دليلاً على فشل الكنيسة الإنجيلية في القيام برسالتها. فعاد إلى منطقته وبدأ الدعوة إلى إنشاء كنيسة حرة من الأوساط المتديّنة الورعة، وتأسيس جمعية إنجيلية Evangaelische Verein مستقلة عن الكنيسة الإنجيلية الرسمية؛ وكان مساعده الأيمن في دعوته هذه جورج دافيد هارديج

Gerog David Hardegg، الذي تعرّف عليه عام ١٨٤٨^(١٤)، وصديقه عمانويل باولوس.

واتخذت هذه الحركة الدينية اتجاهاً جديداً عام ١٨٥٣، مع اندلاع حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا، إذ سرى اعتقاد لدى الأوروبيين أن الدولة العثمانية على شفا الانهيار، وأن تَفَكُّكها بات وشيكاً. وجاءت الاضطرابات الدينية التي حدثت في القدس وغيرها من المدن الفلسطينية، لتشد أنظار المتدينين الألمان إلى الأرض المقدسة. وبرز كريستوف هوفمان يدعو إلى سلخ فلسطين عن الدولة العثمانية، وجعلها موطناً لشعب الله Das Volk Gottes، تنفيذاً لوعود الأنبياء الواردة في التوراة. وشعب الله هذا ليس الشعب اليهودي، الذي لم يعد له وجود، وإنما هو الشعب المسيحي الإنجيلي.

وفي ٢٤ آب عام ١٨٥٤ دعت لجنة أصدقاء القدس، التي تشكلت من أتباع هوفمان، إلى اجتماع عام يعقد في فالدهورن Waldhorn، قرب لوفيزبورغ، من أجل بحث الوسائل اللازمة لتحقيق مشروع هوفمان. واقترح هارديج في هذا الاجتماع التوجه إلى البندستاغ، في فرانكفورت، والطلب منه أن يسعى لدى السلطان العثماني للسماح للألمان باستعمار فلسطين، من أجل إيجاد عمل للعاطلين عن العمل في ألمانيا. وكان الشعار الذي طرحه هارديج في هذا الاجتماع "ينبغي إيجاد عمل للشعب الألماني" "die deutsche Nation muss Arbeit Haben." ونفذ اقتراح هارديج، ووَقَّع العريضة ٤٣٩ شخصاً، وحملها هوفمان وهارديج وقدمها إلى البارون فون بروكش Von Brokesch، رئيس البندستاغ. غير أننا لا نعلم شيئاً عن استجابة البندستاغ لهذه العريضة أو رفضها^(١٥).

وتولت مجلة Sueddeutsche Warte، الناطقة باسم الجماعة الدعوة إلى المشروع الجديد. وأخذت في الوقت نفسه تشنّ هجوماً على كنيسة فورتمبرغ الإنجيلية الرسمية. وفي هذه الأثناء كتب فيلهلم هوفمان، من برلين، إلى شقيقه ينصحه بالبقاء في حوزة الكنيسة الإنجيلية، والابتعاد عن مغامرات هارديج. غير أن كريستوف لم يُعِر بالاً لهذه النصيحة، وكتب مشروع دستور للجمعية الجديدة سماه "مشروع دستور شعب الله Verfassungsentwurf des Volkes Gottes". فتشكلت الجمعية في عام ١٨٥٤ تحت اسم "جمعية تجميع شعب الله في القدس Gesellschaft fuer Sammlung des Volkes Gottes in Jerusalem"، وجعلت هدفها السعي لجمع شعب الله في القدس لبناء مملكة الرب. ورأى قادة الجمعية أنهم بحاجة إلى مزيد من الأعداد على أرض الوطن، لجمع أكبر عدد ممكن من الألمان وغيرهم قبل الهجرة إلى فلسطين. وقام هوفمان وهارديج برحلات عديدة في أوروبا، وحضرا في خريف عام ١٨٥٤ مؤتمراً دينياً في باريس، وعرضا عليه مشروعهما، فلقى اهتماماً من المؤتمرين.

وتبرعت بعض الأسر الثرية بالأموال لشراء الأراضي الواجب تجميع شعب الله عليها في ألمانيا قبل الانطلاق إلى استعمار فلسطين. فتم شراء قطعة واسعة من الأرض في كيرشنهاردتفوف (Kirchenhardthof)، قرب فينندن Winnenden تحت منبع نهر النيكر Necker، عام ١٨٥٦. وتمكن هوفمان وهارديج من جمع عدد كبير من الأنصار، أُطلق عليهم اسم "أصدقاء القدس Jerusalem Freunde"، بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف شخص. وساهمت سنوات الجذب التي شهدتها مملكة فورتمبرغ، خلال السنوات الأولى من تشكيل هذه الجمعية، في كسب العديد من الأنصار الراغبين في الهجرة إلى فلسطين^(١٦).

وانتهت حرب القرم عام ١٨٥٦ دون أن تسفر عن انهيار الدولة العثمانية، كما كان يتوقع هوفمان وأنصاره. وشنت الكنيسة الإنجيلية الوطنية في فورتمبرغ، بتشجيع ودعم من حكومتها، حملة شديدة على أصدقاء القدس. فأخذت أعدادهم تقلّ تدريجياً^(١٧).

وفي صيف عام ١٨٥٨ قررت الجمعية إرسال وفد مؤلف من هوفمان وهارديج والمزارع بوبيك Bubeck إلى فلسطين، إيماناً منها بأن المسألة الشرقية لم تُحلّ بمؤتمر باريس عام ١٨٥٦، وأن لا بد من دراسة إمكانية استعمار فلسطين. وصل الوفد إلى فلسطين، والتقى بمطران القدس الانجليكاني صموئيل غوبات Samuel Gobat، وبالمبشر الإنجيلي شنلر Schneller، فشرحا للوفد أوضاع فلسطين، ولم يشجّعا على تنفيذ مشروعه. وجمع الوفد معلومات جيدة عن البلاد من القنصلية البروسية في القدس. ولما عاد إلى ألمانيا نشر هوفمان تقريراً عن الزيارة في مجلة Sueddeutsche Warte، بيّن فيه المصاعب التي تعترض الاستيطان في فلسطين، وأوضح أن لا بد من الاستعداد لذلك. ودامت فترة الاستعداد هذه عشر سنوات^(١٨).

دخل هوفمان وأنصاره في أثناء ذلك في خلاف مع كنيسة فورتمبرغ الإنجيلية، أدى إلى طردهم منها في ٧ تشرين الأول عام ١٨٥٩. واضطروا إلى إنشاء طائفة دينية خاصة بهم. فقدّم هوفمان اقتراحاً إلى مجلس الجمعية بتسمية الطائفة "الهيكل الروحي Der geistliche Tempel" أو "طريق الخلاص Der Weg Zur Rettung". أما فكرة "الهيكل" وتسمية الجمعية به، فتعود إلى القس المعمداني جاكوب أمان Jakob Amman، الذي أنشأ في برن Bern، بسويسرا، بهذا الاسم عام ١٩٦٣، بهدف إعادة بناء هيكل الرب في القدس^(١٩). ولا صلة لهذه التسمية بجمعية "فرسان الهيكل" التي تشكلت في مطلع القرن الثاني عشر، واستمرت في نشاطها حتى نهاية احتلال الفرنجة لبلاد الشام في نهاية القرن الثالث عشر.

واشتدت حملة الكنيسة الإنجيلية على الطائفة الجديدة، فتفرق العديد من أفرادها؛ غير أنها استطاعت أن تحافظ على بقاء بعضهم في حظيرتها، وأن تكسب إلى صفوفها العديد من الأتباع خارج ألمانيا، وبخاصة في أوساط المهاجرين الألمان في أمريكا الشمالية وجنوب روسيا.

وأعيد تنظيم الجماعة في كيرشنهاردت هوف عام ١٨٦١ تحت اسم جماعة الهيكل الألمانية Deutscher Tempel، من أجل تجديد حياة "شعب الله" الدينية والاجتماعية. وحتى تكسب الجمعية ولاء العناصر القومية الألمانية، رفعت شعارات قومية ألمانية. وجاء في أحد بياناتها: "إن روح الشعب الألماني ومزياه ينبغي أن تكون الطابع المميز لهيكل القدس واستعمار فلسطين... ولا بد من السعي لدى سلطة ألمانية (أو دولة ألمانية) لمتابعة تحقيق هذا الهدف".^(٢٠)

واستمر قادة الجمعية يحضرون المؤتمرات الدينية التي كانت تعقد في برلين ولندن وبيزن وجنيف، ويتجولون في العواصم والمدن الأوروبية الكبرى يدعون إلى تحقيق مشروعهم. فقد شارك هارديج في المؤتمر الذي عقد في جنيف عام ١٨٦٧، والذي كان ضيف الشرف فيه غار بيبالدي Garibaldi، بطل الحرية في إيطاليا. كما حضر حفل إنشاء الصليب الأحمر على يد السويسري هنري دينان Henri Dunant، الذي أبدى اهتمامه بشؤون الشرق العربي في فترة مبكرة، فقد أصدر كتاباً في باريس بعنوان "تجديد الشرق La Rénovation de l'Orient" عام ١٨٦٥. وقام دينان أثناء إقامته في باريس بإنشاء جمعية العمل الدولي من أجل تجديد فلسطين Oeuvre Internationale de la Rénovation de la Palestine، وتولى منصب سكرتيرها العام؛ وتولى إنشاء فروع لها في باريس. وأقام هارديج صلات وثيقة مع دينان. وتولى الأخير توجيه نداءات إلى فروع "الجمعية الدولية لتجديد فلسطين"، من أجل هيمنة المسيحيين على فلسطين عن طريق الاستيطان السلمي.

وسعى دينان لدى السفير العثماني في باريس جمال باشا، ولدى الوزير المفوض الفرنسي في إسطنبول المسيو بوريه Bourrée، من أجل حث الباب العالي على السماح للمستعمرين الألمان، من جمعية الهيكل، بشراء الأرض في فلسطين والاستقرار فيها. وتحت ضغط دينان جاء الجواب من الباب العالي يطلب تحديد موقع الأرض التي يريد المستعمرون الألمان شراءها. فاتصل دينان بهارديج، واقترح عليه إرسال مهندس مختص إلى فلسطين من أجل اختيار الموقع المطلوب وتحديد مساحته. وكتب رسالة إلى هارديج مؤرخة في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٦٨ يقول فيها: "من المعروف جيداً أن إرسال مهندس من أوروبا أمر مكلف (١٠٠٠٠ - ١٥٠٠٠ فرنك)، وهذا مبلغ أولى بجمعيتكم أن توفره لها. ولذلك قمنا بالاتصال بعدد من الأشخاص، وبخاصة بالوزير المفوض بوريه، ليسأل إذا كان بالإمكان إيجاد مهندس قدير وأمين، وبأجر قليل، في إسطنبول أو في أي مكان آخر في الشرق. واتصلنا بدورنا بمحل لوفنتال Loewenthal في يافا لهذا الغرض. ولكننا لم نستطع أن نحصل على المهندس المطلوب. وربما كان من الأفضل لو أن جمعيتكم اختارت مهندساً من بين أعضائها، وكلفته بالسفر إلى فلسطين...". وفشل دينان وهارديج في العثور على المهندس المطلوب. وأخيراً قررت الهيئة الإدارية لجمعية الهيكل، في اجتماع عقدته في ٢٤ آذار ١٨٦٨ في كيرشنهارتهوف، أن يقوم هوفمان وهارديج بالسفر إلى فلسطين في آب من العام نفسه، من أجل إنشاء أول مركز، Tempel Post، للجمعية على أرض فلسطين. وقد سرّ دينان بهذا القرار، وكتب إلى هارديج في ٨ نيسان ١٨٦٨ يقول: "أمل أن نتمكن من إحراز بعض التقدم في عملنا في هذا الصيف. وكلما طال الزمن زاد اقتناعي بذلك. يمكنك الاعتماد علي، إنني مؤمن بمستقبل فلسطين... وسيكون لجمعيتكم الشرف الكبير في إنشاء أول مستعمرة على الأرض المقدسة..."^(٢١).

وفي ٦ آب ١٨٦٨ سافر زعيما جمعية الهيكل، هوفمان وهارديج، من كيرشنهاردت هوف مع أسرتيهما إلى فلسطين. ومَرًّا بفيثا حيث قابلا البارون فون أورزي Von Orsi، من وزارة الخارجية النمساوية، فوعدهما بأن يقدم ممثلو الحكومة النمساوية الدبلوماسيون النصائح والمساعدات الضرورية لهما. كما مرا ببودابست، وقابلا فرانز دياك Franz Deák، صاحب فكرة الاتحاد النمساوي - الهنغاري. وأخيراً وصلا إلى إسطنبول، حيث رحب بهما الوزير المفوض لرابطة دول شمال ألمانيا Der Norddeutsche Bund، الذي كان قد تلقى تعليمات من البلاط الملكي البروسي بتقديم التسهيلات اللازمة لهما، نتيجة وساطة شقيق هوفمان، القس في البلاط البروسي. وفي ١٥ أيلول ١٨٦٨ تقدّم هوفمان وهارديج بطلب إلى الباب العالي للموافقة على شراء قطعة من الأرض مساحتها ثلاثة أميال مربعة على جبل الكرمل في حيفا. وجاء اختيار موقع القطعة بتوصية من المفوضية الألمانية. وأوضحا في طلبهما هذا أن الغرض من الاستقرار في فلسطين ديني محض، وليس له أية أبعاد سياسية، وأن الاستيطان هناك سيقصر على أعضاء جمعية الهيكل، وسوف يتم بصورة تدريجية. كما أبانا أيضاً دور الجمعية المقبل في تطوير الزراعة والصناعة في البلاد، ولذلك طالبا بإعفاء المستوطنين الألمان من الضرائب لمدة تتراوح بين خمس وسبع سنوات، حتى يتمكنوا من تدبير أمورهم. وأبدوا رغبة المستوطنين في إدارة شؤونهم بأنفسهم، دون أي تدخل من السلطة الحاكمة.

واتصل هارديج بالوزراء المفوضين لدول النمسا وفرنسا وإنكلترا والولايات المتحدة وروسيا وهولندا والسويد، وقال لهم: "إن ظروف شعبنا أفنعتنا بأن الوقت قد حان لبناء هيكل الرب في الأرض المقدسة؛ فأقوال الأنبياء في العهدين القديم والجديد تعتبر بناء الهيكل الوسيلة الوحيدة لسعادة الشعوب والأفراد على حد سواء". ورغم النشاط الحثيث الذي بذله زعيما جمعية الهيكل طوال مدة إقامتهما في

إسطنبول (٤٥ يوماً)، لم يحصل على الفرمان المطلوب. فغادرا العاصمة العثمانية في ٨ تشرين الأول ١٨٦٨ باتجاه بيروت، فوصلا إليها بعد أربعة عشر يوماً. وقابلا هناك القنصل البروسي العام الدكتور فيبر Dr. Weber، فقدم إليهما عدداً من النصائح، ومنها أن لا يتنازلا عن الجنسية الألمانية، وأن يرفضوا الجنسية العثمانية، لكي يتمتعا بحماية القناصل الألمان. ومن بيروت سافرا إلى حيفا فبلغاها في ٣٠ تشرين الأول عام ١٨٦٨^(٢٢).

كان من الأسباب التي دفعت زعمي جمعية الهيكل إلى البدء بمشروعهما الاستيطاني في فلسطين، صدور القانون العثماني السادس عشر من حزيران عام ١٨٦٧، الذي أباح للرعايا الأجانب حق التملك في المدن والريف في كافة الولايات العثمانية. وأصبح هذا القانون نافذ المفعول في حزيران ١٨٦٨. لذلك اعتقد زعيما جمعية الهيكل أن الطريق أمامهما قد فتح لشراء الأرض في فلسطين والاستقرار عليها^(٢٣).

مستعمرة الهيكلين في حيفا

عند وصول هوفمان وهارديج إلى حيفا، استقبلهما نائب القنصل البروسي في المدينة، الهر تسيفوس Ziphos، وقدم لهما كل ما يحتاجان إليه من عون ومساعدة. وفي الأيام الأولى من إقامتهما وصل رد الباب العالي على طلبها، يؤكد استحالة السماح لهما بشراء الأرض في حيفا إلا إذا حصلوا على الجنسية العثمانية. ولكن هذا الرد لم يثنهما عن مشروعهما؛ فأجريا اتصالات بالبلاط البروسي، الذي أصدر تعليماته إلى الوزير المفوض لرابطة دول شمال ألمانيا في إسطنبول بضرورة التوسط لدى الباب العالي، وتذكير المسؤولين العثمانيين بأنهم سمحوا لرعايا دول أوروبية أخرى بشراء الأرض دون التجسس بالجنسية العثمانية^(٢٤).

غير أن هوفمان وهارديج لم ينتظرا نتائج الاتصالات الدبلوماسية، وبتشجيع من تسيفوس قاما بشراء قطعة من الأرض مساحتها عشر هكتارات عن طريق الاحتيال على القانون العثماني، إذ تم الشراء عن طريق وسيط يحمل الجنسية العثمانية، وقام بدوره بتأجيرها لهما لمدة طويلة. ولما احتج القاضي على عملية البيع، سويت القضية بتدخل نائب القنصل البروسي^(٢٥).

وبدأ بناء أول مستعمرة ألمانية في فلسطين على قطعة الأرض هذه، التي كانت تمتد من شاطئ البحر حتى سفح جبل الكرمل، في ربيع عام ١٨٦٩. ودُشنت المنازل الاثنا عشر التي بنيت على هذه الأرض في آذار ١٨٧٠ من قبل نائب القنصل البروسي تسيفوس، واشتملت آنذاك على منازل للسكن، وبناء لمدرسة، وآخر للصلاة. وقد وضع تصميم هذه المنازل والأبنية مهندس دنماركي جاء من بيروت، اسمه Loyved^(٢٦) وعلى مدخل المستعمرة نقشت العبارة التالية باللغة الألمانية "لتنسني يميني إن نسينك يا قدس Vergesse ich dein Jerusalem, So wurde meiner Rechten vergessen (1969)" وحرص هوفمان وجماعته على بناء المستعمرة على الطراز الألماني، وفتح الشوارع الواسعة فيها، وتزيينها بالأشجار والزهر والورود. كما اهتمت الهيئة الإدارية للجمعية باختيار أفضل العناصر من أعضائها للهجرة إلى فلسطين، من أجل إقامة مجتمع متماسك مستقلاً عن المحيط العربي؛ كما حرصت على إقامة صلات وثيقة بالوطن الأم، وعلى الحفاظ على مستوى حياتهم كأوروبيين في حيفا^(٢٧).

ونمت هذه المستعمرة بقدوم مهاجرين جدد من كيرشنهاردت هوف، وبخاصة بعد إبرام اتفاقية بين مملكة روسيا والدولة العثمانية في ٧ حزيران ١٨٦٩، نصت على السماح للألمان بالإقامة والاستقرار في فلسطين. فبلغ عدد سكان المستعمرة في بداية ١٨٧٣ (٢٥٤) نسمة. وبلغ عدد بيوتها (٣١) بيتاً، استعمل

عشرون بيتاً إلى جانبها كمعامل وورش للعمل. وفي عام ١٩٠٢ بلغ عدد سكانها ٥١٧ نسمة، وبلغ عدد منازلها ٩٢ منزلاً، وإلى جانبها ٩٥ ورشة عمل^(٢٨). وبلغ عدد سكانها عند اندلاع الحرب العالمية الأولى (٧٥٠) نسمة^(٢٩). ونقص عدد سكانها بسبب الاحتلال البريطاني لفلسطين ١٩١٧/١٩١٨، واعتقال العديد من الألمان، وتهجير بعضهم قسراً إلى ألمانيا في نهاية الحرب العالمية الأولى، والسنوات الأولى التي تلت توقيع معاهدة الصلح بين ألمانيا والحلفاء عام ١٩١٩^(٣٠).

اعتنى الألمان في السنوات العشر الأولى من استيطانهم في حيفا بزراعة الكرمة، وبناء معامل لإنتاج النبيذ. غير أن مرضاً أصاب الكرمة في الثمانينات من القرن التاسع عشر، فقاموا باقتلاعها. وكذلك أصيبت أشجار الحمضيات التي زرعوها بأمراض أدت إلى اقتلاعها. عند ذلك انصب اهتمامهم على زراعة الزيتون، الذي كانوا يستخرجون منه صابوناً من نوع جيد، كانوا يصدرونه لألمانيا وأمريكا الشمالية.

وأقاموا في المستعمرة طاحونة هوائية على الطراز الهولندي، كما أنشأوا مزرعة للألبان. وانصرفوا تدريجياً عن الزراعة، واتجهوا نحو التجارة والصناعة. حتى أصبحوا محور الحياة الاقتصادية في حيفا. وكانوا رواداً في الصناعات والحرف اليدوية وتجارة الاستيراد والتصدير. وأدخلوا إلى حيفا المكتبات الحديثة، والأمسيات الموسيقية، والنوادي المسرحية، والنشاط الرياضي؛ فكانت مثلاً يحتذى من قبل السلطات العثمانية في المدينة^(٣١).

مستعمرة يافا:

في آذار عام ١٨٦٩ وفد إلى هوفمان زائر من يافا من أصدقائه الذين تعرّف بهم في بازل، هو المبشر الإنجيلي زالميلر Saalmueller، يرافقه الألماني ميسلر

Messler، الذي اشترى المستعمرة الأمريكية في يافا والمعروفة باسم "قرية آدامز Adams City، وجاء يعرضها على الهيكليين الألمان بسعر معقول. ومن المعروف أن هذه المستعمرة المؤلفة من تسعة عشر بيتاً من الخشب، قد أنشأتها طائفة دينية أمريكية جاءت إلى فلسطين لتشهد عودة المسيح إلى الأرض، كما تعتقد. ولكنها هجرت المستعمرة بعد أن تبين لأتباعها أن النبوءة بعودة المسيح لم تتحقق، وبعد أن فتكت بهم الأمراض^(٣٢).

لقي العرض الذي تقدم به ميسلر استجابة لدى الهيكليين، فاشترى خمسة منازل منها بمبلغ (٦٥) ألف فرنك فرنسي أول الأمر، ثم ما لبثوا أن اشترى ثلاثة أرباعها في مطلع عام ١٨٧١، وبعد ذلك بعامين أصبحت المستعمرة بأكملها ملكاً لهم^(٣٣).

وفي أيار ١٨٦٩ انتقل هوفمان من حيفا إلى المستعمرة الجديدة، وأوكل إدارة مستعمرة حيفا إلى رفيقه هارديج. وياشر فور وصوله ببناء مستشفى صغير ودار للضيافة Gasthaus.

وحدث أن قام ولي عهد بروسيا، الأمير فريدريش Friedrich، بالحج إلى القدس في ذلك العام، بعد أن حضر الاحتفالات بفتح قناة السويس؛ فنزل في يافا في ٢ تشرين الثاني عام ١٨٦٩، وزار المستعمرة الألمانية الجديدة. وكتب هوفمان عن هذه الزيارة في مجلة الجمعية، Sueddeutsche Warte في عددها الصادر في ١٥ تشرين الثاني ١٨٦٩، يقول: "لقد استقبلناه (ولي عهد بروسيا) على مدخل المستعمرة، فنزل عن جواده وتحدث إلى العديد منا بروح ودية، ثم تجول في المستعمرة، وزار منزل رئيس الجمعية، واتجه بعد ذلك إلى دار الضيافة، حيث تناول مع حاشيته طعام الفطور. وودعناه بعد ذلك، فركب جواده، يرافقه جنود البحرية (الألمان)، والباشا (العثماني)، والجنود الأتراك نحو الرملة..". هذا وقد تبرع

الأمير البروسي ببعض المال للجمعية^(٣٤). وبلغت مساحة مستعمرة يافا هذه ستين هكتاراً.

مستعمرة سارونا Sarona

توسع المستوطنون الهكليون في يافا في نشاطهم، واشتروا في عام ١٨٧١ قطعة من الأرض على طريق يافا - تل أبيب مساحتها ٧٨ هكتاراً، (بسعر الهكتار الواحد مئة غولد Guld). وبدأ بناء المنازل على قطعة الأرض هذه في ٢٧ آب ١٨٧١، فكانت المستعمرة الألمانية الثالثة في البلاد. وتولى تصميم الأبنية والتخطيط للمستعمرة المهندس الألماني ثيودور زاندل Theodor Sandel، ابن طبيب المستعمرة الهيكلية في يافا الدكتور زاندل، وقد انتقل إلى المستعمرة نائب القنصل الألماني في يافا، أفندي (أرمني الأصل).

انتشرت الحمى بين سكان المستعمرة في عام ١٨٧٢، وفتكت بثمانية وعشرين شخصاً من مجموع سكان المستعمرة، البالغ حوالي مئة نسمة^(٣٥).

اشتهرت مستعمرة سارونا بزراعة الزهور والكرمة وتربية الأبقار، كما وجد فيها معمل لإنتاج النبيذ.

وفيما يلي بيان بتطور هذه المستعمرة بين عامي ١٨٧٢ و ١٩٢٦:

| السنة | عدد السكان | المساحة بالهكتار | المساحة للفرد الواحد بالهكتار |
|-------|------------|------------------|----------------------------------|
| ١٨٧٢ | ٦٣ | ٧٨ | ١,٢ |
| ١٨٨٠ | ١٦٢ | ٢٢٣ | ١,٤ |

| | | | |
|---------|-----|-----|------|
| ١٠٧ | ٤٦٩ | ٢٦٣ | ١٨٩٨ |
| ٢،٤ | ٤٧٤ | ٢٠٠ | ١٩١٤ |
| (٣٦)٢،٢ | ٤٩٢ | ٢٢٥ | ١٩٢٦ |

مستعمرة ريفاييم Rephaim

اشترى الهر فرانك Frank، أحد أعضاء جمعية الهيكل في مستعمرة يافا، قطعة من الأرض في ريفاييم، شمال غربي محطة سكة حديد القدس، خارج حدود البلدية، في نيسان عام ١٨٧٢، وبنى عليها منزلاً وطاحونة تعمل بالماء. وأخذ أعضاء الجمعية يتوافدون إليه ويشترون الأرض المجاورة. واعتنى سكان المستعمرة الجديدة بإصلاح العربات التي تجرها الخيول. فمنذ عام ١٨٦٧ فتحت طريق للعربات بين يافا والقدس، وكانت بذلك أول طريق للعربات في فلسطين. واهتم الألمان بالنقل بين يافا والقدس، وأصبح منتظماً بعد بضع سنوات من إنشاء المستعمرة الجديدة^(٣٧).

أصبحت مستعمرة ريفاييم منذ عام ١٨٧٨ المقر العام لإدارة جمعية الهيكل؛ وبلغت مساحتها ٢٥ هكتاراً. وكان معظم سكانها يشتغلون بالحرف اليدوية والتجارة والصناعة، واشتملت على مدرسة ثانوية كاملة وروضة للأطفال^(٣٨).

مستعمرة فالهالا Walhala

أنشأها المستعمرون الألمان في يافا عام ١٨٩٢ على طريق يافا - تل أبيب. وأقيم في هذه المستعمرة مستشفى لمعالجة الألمان المقيمين في المستعمرات الألمانية في جنوب فلسطين (يافا، سارونا، فيلهما). وكان سكانها يمارسون التجارة والصناعة والحرف اليدوية، ويعملون في وكالات التأمين والنقل البحري. وأنشئ في

المستعمرة معمل للإسمنت. وبنيت (فندق القدس) في يافا الذي كان من أجمل فنادق المدينة^(٣٩).

مستعمرة فيلهلما Wilhelma

أنشئت على يد المستوطنين الألمان في مستعمرتي يافا وسارونا عام ١٩٠٢، على بعد خمسة أميال إلى الشمال الشرقي من اللد، وسط سهل خصيب، بالقرب من سكة حديد اللد - حيفا. بلغ عدد سكان المستعمرة في العام الأول من إنشائها ٩٤ نسمة. وفيما يلي بيان بتطور هذه المستعمرة بين عامي ١٩٠٣ و ١٩٢٦:

| معدل | السنة | عدد السكان | المساحة بالهكتار | المساحة للفرد الواحد بالهكتار |
|------|-------|------------|------------------|-------------------------------|
| | ١٩٠٣ | ٩٤ | ٨٢٤ | ٨،٨ |
| | ١٩١٤ | ١٩٥ | ٩١٩ | ٤،٦ |
| | ١٩٢٦ | ٢١٥ | ٩٥٩ | ٤،٥ ^(٤٠) |

مستعمرة نويهاردهوف Neuhardhof

أنشأها المستعمرون الألمان في حيفا من أجل الحصول على مزيد من الأرض، خارج نطاق المستعمرة الهيكلية الأولى في البلاد. وتقع المستعمرة الجديدة على بعد أربعة أميال إلى الجنوب من جبل الكرمل. وبلغت مساحتها أربعمئة هكتار. وقد استُغلت أرض المستعمرة لزراعة الخضروات والحبوب^(٤١).

مستعمرة بيت لحم في الجليل Bethlehem

أنشأها المستوطنون الألمان في حيفا عام ١٩٠٦، بأموال من "جمعية شتوتجارت لتطوير الاستعمار الألماني في فلسطين"، على أرض قرية بيت لحم الواقعة على سفوح جبال الجليل، والتي تبعد بضعة أميال عن مدينة الناصرة. أما مساحتها فألف وسبعمائة هكتار، زُرِع ثلثها بأشجار البلوط، والباقي بأشجار الكرمة والفواكه والحبوب. وفيما يلي بيان بنمو هذه المستعمرة بين عامي ١٩٠٧ و١٩٢٦:

| السنة | عدد السكان | المساحة بالهكتار | المساحة للفرد الواحد بالهكتار | معدل |
|-------|------------|------------------|----------------------------------|------|
| ١٩٠٧ | ١٠ | ٧١٨ | ٥٤,٨ | |
| ١٩١٤ | ٤١ | ٧١٨ | ١٣,٣ | |
| ١٩٢٦ | ٩٨ | ٧١٨ | ٥,٤ ^(٤١) | |

مستعمرة فالدهايم Waldheim

أنشئت هذه المستعمرة عام ١٩٠٧ بالقرب من بير سالم على يد المسؤولين عن دار الأيتام السورية Das Syrische Waisenhaus، لتكون مركزاً لتدريب خريجها واستغلالها لتمويل دار الأيتام. ولذلك لا صلة لها بمستعمرات جمعية الهيكل.

مستعمرة شمه Chemeh

كانت تتبع بدورها دار الأيتام السورية في القدس، ولم تختلف عن مستعمرة فالدهايم من حيث الأغراض التي أنشئت من أجلها^(٤٢).

اشتملت كل مستعمرة من مستعمرات الهكيلين على قاعة للاجتماعات العامة، وأخرى للعبادة، ومدرسة، وروضة أطفال أو أكثر، وجمعيات للموسيقى، وناد رياضي، ومستوصف صغير أحياناً..

المصاعب الداخلية التي واجهها المستعمرون الألمان:

في السنوات الأولى للاستيطان واجه المستعمرون الهكيليون صعوبات ومتاعب عديدة بعضها أمني وبعضها الآخر اقتصادي واجتماعي. لذلك أهملوا الأمور الروحية، وفشلوا في كسب أنصار جدد لحركتهم في فلسطين وفي ألمانيا. وبلغ مجموع من استقر منهم في فلسطين بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٥ نحو سبعمئة وخمسين عضواً، أي نحو ربع عدد أعضاء الجمعية. وبعد عام ١٨٧٥ أخذت جمعية الهيكل في الاضمحلال التدريجي في ألمانيا نفسها، وتوقفت منذ ذلك العام هجرتهم من ألمانيا، ومات معظم الجيل الأول من هؤلاء المستعمرين في أواخر السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر.

أدرك الجيل الجديد تعذر تحقيق الغاية من هجرتهم إلى فلسطين، وهي جمع "شعب الله" في القدس وإقامة مملكة المسيح. وتركز اهتمامهم على تحسين أحوالهم، وتقديم نمط معين من المعيشة للسكان المحليين. وساهم هذا التغيير في أهداف الجمعية في جعل الحياة أسهل.

كانت أول الصعوبات التي واجهها المستعمرون الهكيليون في فلسطين النزاع بين زعمي الجمعية، كريستوف هوفمان وجورج هارديج: كان هوفمان المؤسس الروحي للجمعية، وكان هارديج المنفذ لفكرة المستعمرات. أما أسباب الخلاف

بينهما فشحضية، تدور حول كيفية تطوير الاستيطان الألماني، وحول بعض الآراء الدينية.

فقد تولى كل منهما إدارة مستعمرة مستقلة عن الأخرى. وكانت مستعمرة حيفا من نصيب هارديج بينما كانت مستعمرة يافا من نصيب هوفمان. وكان هارديج قد أسرع إلى شراء أراضٍ تابعة لمستعمرة دون التنسيق مع هوفمان. وعارض هارديج بشدة نقل المعهد الثانوي إلى ريفايم، قرب القدس. وحصل خلاف بين هارديج والهيئة الإدارية لجمعية الهيكل في شتوتجارت، حول أموال صندوق الاستعمار التابع للجمعية، Jolinisations Kasse. ورفض هارديج أن يجيب عن كيفية صرفه لهذه الأموال، فاتهمته الهيئة الإدارية بالتبذير. وكان لسلكه المتصلب أثر في ابتعاد الهيكلين في فلسطين عنه؛ فقد كان منفراً في تصرفاته. ولما أجريت الانتخابات لاختيار القيادة الجديدة للجمعية، عام ١٨٧٤، لم ينجح هارديج. فما كان منه إلا أن أعلن انسحابه من الجمعية. وصدرت مجلة الجمعية "Suddeutsche Warte" في ١٧ تموز ١٨٧٤ بأخر مقال له بعنوان "وداعي لجمعية الهيكل Mein Abschied von der Gesellschaft des Tempels"، أكد فيه التزامه بمبادئ الجمعية رغم انفصاله عنها. وخرج مع هارديج عدد من أصدقائه، فشكلوا "رابطة الهيكل، Der Tempelverein". ومنذئذ تولى القيادة العليا للجمعية كريستوف هوفمان، الذي أصبح يتمتع بسلطات واسعة. فأعاد تنظيمها بحيث أصبح لها مجلس استشاري، Temperlrat، مؤلف من مئة عضو. ووثقت الجمعية صلاتها بفروعها في ألمانيا وأمريكا الشمالية وجنوب روسيا، بأن أصبح لهذه الفروع ممثلون في مجلس الجمعية الاستشاري. وفي مطلع أيلول من عام ١٨٧٤ دعي ممثلون عن فروع الجمعية للمشاركة في عيدها الذي أقيم في حيفا. وبناء على قرار مجلس الجمعية اعُتبر يوم التاسع من أيلول عيداً لها. وتم الاحتفال بهذا العيد الأول بحضور المندوبين المذكورين.

ومندئذ تكررت اللقاءات في هذا العيد الذي كان القصد من استحداثه الحفاظ على الولاء للجمعية^(٤٣).

وحدث انقسام جديد في صفوف جمعية الهيكل، سببه الخلاف بين هوفمان ودافيد شتراوس، David Strauss، خليفة هارديج في إدارة مستعمرة حيفا، حول أسرار الكنيسة المقدسة، وتعاليم الثالوث الأقدس، وألوهية المسيح، وموت المسيح الابن. وكان تأثير هوفمان العقلاني على جماعته قوياً جداً. لذلك بقيت أكثرية أعضاء الجمعية تدين له بالولاء. وانفصل عدد ضئيل من الأعضاء وأخذ يتقرب من الكنيسة الإنجيلية.

واستغلت الكنيسة الإنجيلية الانقسامات في صفوف جمعية الهيكل، فأوفدت القس راينكه Reineche، من القدس منذ عام ١٨٧٩ إلى مستعمرات الهيكلين. وقام خليفته القس شلخت، Schlicht، بالمهمة نفسها. وفي عام ١٨٩١ قررت "جمعية بيت المقدس، Jerusalem Verein"^(٤٤) الإنجيلية إرسال معلم إلى مستعمرة حيفا ليقوم بتدريس أبناء الطائفة هناك، المنشقين عن هوفمان. وبعد ذلك بعام واحد بنيت مدرسة لهذه الغاية. وعندما قررت جمعية بيت المقدس إرسال القس ديكرت، Deckert، إلى حيفا. وبذلك أصبح للطائفة الإنجيلية في حيفا مدرستها وكنيستها. وبلغ عدد الأسر التي عادت إلى حظيرة الكنيسة الإنجيلية من مستعمرة حيفا الهيكلية عشرين أسرة^(٤٥).

وكان للحرب العالمية الأولى آثار سلبية على المستعمرات الألمانية، إذ منيت بخسائر فادحة على الصعيد الاقتصادي. ومع ذلك بلغ عدد المستوطنين الألمان في عام ١٩١٨ نحو ألفي نسمة^(٤٦).

الحركة الثقافية في المستعمرات الهيكلية الألمانية في فلسطين:

سعى كريستوف هوفمان، الزعيم الروحي لجمعية الهيكل، منذ وصوله إلى فلسطين إلى إنشاء مؤسسة تعليمية تهيئ التلاميذ من أبناء أعضاء الجمعية إلى الالتحاق بالتعليم الجامعي في ألمانيا. كتب هوفمان إلى رفيقه باولوس في ٢٨ أيار ١٨٧٠ يقول: "إن المدارس تشغل بالي ليل نهار". وكان هم هوفمان تنشئة أجيال جديدة مؤمنة بالرسالة التي كرس نفسه لها. ولم تكن المدارس التي أنشأتها الجمعية في مستعمراتها السابقة الذكر مجرد مدارس دينية، وإنما كانت تدرّس الرياضيات والعلوم الطبيعية والعلوم الفنية والتاريخ والجغرافيا واللغات الحديثة (الألمانية والفرنسية والعربية). وكان التعليم الديني أساسياً في هذه المدارس.

ولعل أبرز إنتاج ثقافي للهيكليين في فلسطين هي مؤلفات زعيمهم كريستوف هوفمان وجورج هارديج: فقد تولى الأول رئاسة تحرير مجلة الجمعية، Sueddeutsche Warte، التي كانت تصدر في شتوتجارت مدة طويلة من الزمن، وأصدر في عام ١٨٧٥، كتاباً مهماً هو "الغرب والشرق: تاريخ ثقافي من وجهة نظر جماعة الهيكل في فلسطين:

Okzident und Orient: Eine Kulturgeschichte Betrachtung Vom Standpunkt der Tempelgemeinden in Palsestina, Stuttgart, Druck und Verlag J.F. Steinkopf, 1875.

ويتضمن هذا الكتاب المبادئ الأساسية لعقيدة الهيكليين بعد الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد). وفيه إيضاحات جيدة لأفكار هوفمان وتطلعاته. ويتضمن الفصل الأول منه عرضاً لتطور جمعية الهيكل وفكرتها الاستعمارية، ومدى صلتها بحركة الأتقياء القديمة، وموقفها من المسائل الكنسية والعلمية والاجتماعية. ويؤكد هوفمان في هذا الفصل أن الهدف الأول للجمعية السعي إلى استعادة ما فقدته الكنيسة من هيمنة روحية على رعاياها، وثقة المتقنين والمؤمنين بها، وتحقيق تعاليم الكتاب المقدس.

أما الفصل الثاني من الكتاب فيدور حول الشرق وحاجاته، مؤكداً على أن على مستقبل الشرق يقوم التجديد الديني للإنسانية. ويبين أن الواجب الديني ينبغي أن يحرك المسيحيين المؤمنين إلى الهجرة إلى فلسطين، التي لا يمكن مقارنتها بالهجرة إلى أمريكا وأستراليا من وجهة نظر اقتصادية، لأن فلسطين بلد فقير جداً، لا تتوفر فيه المصادر الطبيعية الكافية.

ويتضمن الفصل الثالث من الكتاب موضوع "الغرب ومستقبله"، يتناول فيه هوفمان الوضع الدولي، بصفته سياسياً، منطلقاً من المسألة الدينية التي هي محور تفكيره. يقول في هذا الصدد أن الحزب الوطني الحر، Der Nationalliberden Partei، في المملكة الألمانية (١٨٧٥) قد أهمل النور القيادي للدين، "لأن مجرى تاريخ العالم تحركه أفكار روحية عميقة".

ويكرس الفصل الأخير منه للمسألة الشرقية، ويرى استحالة حل هذه المسألة بفن الدبلوماسية، أو باللجوء إلى القوة. أما الحل الذي يقترحه فحملة صليبية سلمية تضمن الاستعمار المسيحي للشرق، وتقديم صورة حية حقيقة للشرقيين عن التدين والأخلاق المقرونين بالعمل، وبخاصة بعد أن اتضح أن التبشير المسيحي بين المسلمين لم ينل احترامهم واهتمامهم.

أما الكتاب الثاني لهوفمان فيتضمن ثلاث رسائل مفتوحة، Sendschreiben، نشرها خلال ١٨٧٧/١٨٧٨. وقد أصدرتها مجلة الجمعية في كتاب واحد في شتوتجارت عام ١٨٧٨ بعنوان: "رسائل مفتوحة عن الهيكل، والأسرار المقدسة، وعقيدة الثالوث، وألوهية المسيح، وأبوة الله للبشر.

Sendesreiben Ueber den Tempel und die Sakramente, das Dogma Ueber die Dreieinigkeit und von der Gottheit Christi, Sowie Ueber die Versoehnung der Menschen mit Gott, Stuttgart, Warte des Tempels, 1878."

تناول هوفمان في هذه الرسائل عقائد الكنيسة بشأن الثالوث الأقدس، وما قبل وجود المسيح، وموت المسيح وعودته. وقد أحدثت الآراء التي نشرها انقساماً في صفوف جماعته. وأنشأت مجموعة منها في يافا جمعية أطلقت عليها اسم "مؤسسة الهيكل، Tempelstift" تولت إدارة المدرسة والمستشفى في مستعمرة يافا.

ونشر هوفمان مقالات عديدة ونشرت كثيرة حول الدراسات التوراتية، والدروس الدينية للشباب. وتمكن من إنجاز كتابة مذكراته التي نشرت بعنوان "طريقي إلى القدس، Mein Weg nach Jerusalem". ونشر الجزء الأول منها في القدس عام ١٨٨١ بعنوان "ذكريات من شبابي، Erinnerungen aus meiner Jugend"، ونشر الجزء الثاني منها في القدس أيضاً عام ١٨٨٤ بعنوان "ذكريات سن الرشد، Erinnerungen des Mannesalters".

ومن الجدير بالذكر أن هوفمان أصدر كتاباً آخر في بداية إقامته في فلسطين بعنوان "أشعار وأغان، Gedichte und Lieder"، صدر في شتوتجارت عام ١٨٦٩.

اضطر هوفمان بسبب المرض إلى العودة إلى ألمانيا عام ١٨٨١، فتخلى عن رئاسة جمعية الهيكل، وتوفي في ٨ كانون الأول ١٨٨٥^(٤٧).

أما جورج دافيد هارديج، رفيق هوفمان والزعيم الثاني لجمعية الهيكل، فقد شارك في تحرير مجلة الجمعية، Sueddeutsche Warte، منذ أن تعرّف بهوفمان عام ١٨٤٨. وأصدر كتابين قبل الهجرة إلى فلسطين، هما: "الإنجيل السرمدي، Das Ewige Evangelium" و"وسائل لحل المسألة الاجتماعية، Mitteln Zur Loesung der Sozialen"، صدرا في شتوتجارت عن دار كارل شولر عام ١٨٦٦، Frage, Verlag Von Carl Scholer، كما أصدر آخر مؤلفاته عام ١٨٧٧ بعنوان: "المسألة التركية

Die Tuerkische Frage Oder die sechste Zornschaale von einem Laien, Stuttgart, bei Messler Buchdrucker, 1877."

وتوفي هارديج في ١١ تموز ١٨٧٩ في حيفا^(٤٨).

المستعمرات الألمانية في فلسطين والعلاقات الألمانية - العثمانية

ينبغي علينا، عند معالجتنا لموقف ألمانيا من المستعمرات الهيكلية في فلسطين، التمييز بين موقفين: موقف الحكومة الألمانية القيصريّة، وموقف الرأي العام الألماني.

ففي ظل المنافسة القائمة بين الدول الأوروبية الكبرى على الشرق العربي، كان من المفروض أن تستغلّ الحكومة الألمانية وجود طائفة من مواطنيها في فلسطين لصالحها. غير أن دراستنا للوثائق الموجودة في الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الألمانية أفضت إلى عكس هذا الافتراض؛ فقد اتصف الموقف الرسمي الألماني من هذه المستعمرات بالتحفظ، لاعتقاد المسؤولين الألمان أن النفوذ الذي يمكن لألمانيا أن تحققه من خلال دعمها لهذه المستعمرات، لا يساوي المصاعب التي قد تواجهها في علاقاتها مع الدولة العثمانية.

غير أن وزارة الخارجية الألمانية كانت عاجزة عن التصرف، انطلاقاً من الاعتبارات السياسية الصرفة؛ إذ تدخلت عدة عوامل أدت إلى تصرفها، في كثير من الأحيان، بصورة مناقضة لما اعتبرته مناسباً في العلاقات الألمانية - العثمانية. ومن أهم هذه العوامل التي أكرهت برلين على تقديم العون للمستعمرين الألمان في فلسطين، الرأي العام الألماني، والبلاط القيصري، ووزارة خارجية مملكة فورتمبرغ، والبحرية الألمانية.

كان الرأي العام الألماني أكثر هذه العوامل فاعلية: فقد كان المستعمرون الألمان في فلسطين ينشرون تقارير في الصحف الألمانية بصورة متقطعة أحياناً،

ومنتظمة أحياناً أخرى عن نشاطاتهم. وكثيراً ما كانت هذه التقارير الصحفية تؤكد عداة السكان العرب والإدارة العثمانية لهم. وكانت الأوساط القومية الألمانية تتجاهل في البداية المبالغة الواردة في هذه التقارير، غير أنها غضبت لتجاهل حكومة برلين للمعاملة القاسية التي زعم المستعمرون أنهم يعاملون بها من طرف السلطة العثمانية. والواقع أن اهتمام أوروبا المتزايد بالأحداث الجارية في فلسطين منذ منتصف القرن السابع عشر، صاحبه زيادة في كمية المعلومات المنشورة في الصحف المحلية عن تلك الأحداث. وقد استغلّ قادة جمعية الهيكل هذا الوضع أحسن استغلال، إذ كانوا خبراء في هذا الميدان الإعلامي.

أما البلاط الملكي ووزارة الخارجية في مملكة فورتمبرغ فقد كانا معادين، من حيث المبدأ، لنشاطات جمعية الهيكل؛ وذلك لاعتبارات دينية محضة. غير أن هذا الموقف الديني اتّجه إلى الاعتدال بعد انتشار الليبرالية في أوروبا بوجه عام، وفي ألمانيا بوجه خاص؛ وخفّ، مع الزمن، هجوم الهيكليين في مجلتهم *Sueddeutsche Warte* على الكنيسة الإنجيلية والسلطة السياسية في فورتمبرغ^(٩). وأخذ العديد من أعضاء جمعية الهيكل يعودون إلى حظيرة الكنيسة الإنجيلية، حتى بلغ عدد هؤلاء عام ١٨٧٤ نحو ثلث أعضائها. وبدلاً من التطرّف الديني، نما شعور جديد في مملكة فورتمبرغ بأن على الوطن الأم واجب حماية أبنائه في ديار الهجرة، وهم يتعرضون لأعمال البروسيين. ولم تعد حكومة شتوتجارت تقتنع بالاعتبارات التي اعتمدت عليها وزارة الخارجية في برلين في تعاملها مع المستعمرين الألمان في فلسطين.

وكانت القوات البحرية الألمانية، المرتبطة مباشرة بالقيصر، ذات نفوذ واسع، وتتلقى باستمرار تقارير من ضباط البوارج الحربية التي كانت تتردد على الموانئ الفلسطينية. ولعل اهتمام القيصر فيلهلم الثاني بالبحرية زاد من أهمية هذه التقارير التي كان يقرأها القيصر نفسه، ويعلق عليها بخط يده. وكان معظم ضباط البحرية

الألمان الذين يترددون على فلسطين يميل إلى قبول وجهة نظر المستعمرين الألمان، القائلة بأن برلين لم تبذل الجهد الكافي لحمايتهم^(٥٠).

وعندما طلب أصدقاء القدس، Jerusalem Freunde، من البنديستاغ في فرانكفورت أن تتوسط النمسا وبروسيا، العضوان في الاتحاد الألماني، لدى السلطان العثماني للسماح لهم بالاستيطان في فلسطين، رفضت الدولتان هذا الطلب بصورة قطعية، وذهبت النداءات الشخصية الموجهة إلى مندوب بروسيا في الاتحاد، أدراج الرياح^(٥١).

ولما سافر وفد جمعية الهيكل إلى فلسطين عام ١٨٥٨ لدراسة إمكانية الاستيطان فيها، طلب من ملك بروسيا، فريدريش فيلهلم الرابع Friedrich Wilhelm IV، الذي كانت تربطه بفلسطين صلات عاطفية دينية، أن يزوده بعدد من الخبراء الرسميين. وليس هناك ما يدل على استجابة ملك بروسيا لهذا الطلب^(٥٢).

ولما قرر الهيكليون عام ١٨٦٨ البدء بالاستيطان في فلسطين، طلبوا من جديد المساعدة من ملك بروسيا. وكان فيلهلم هوفمان، شقيق رئيس جمعية الهيكل (كريستوف هوفمان)، يشغل آنذاك أعلى منصب كنسي في برلين General Superintendent، وقسيس البلاط الملكي، وله نفوذ كبير على ملك بروسيا. غير أن الملك طلب من وزارة الخارجية أن تتعرف على موقف حكومة فورتمبرغ من جمعية الهيكل قبل تقديم أية مساعدة لها. وجاء جواب وزير الخارجية في شتوتجارت في ١٦ أيلول ١٨٦٨ يقول إن آراء الجمعية ومواقفها المعادية من الكنيسة الإنجيلية تجعلها عنصراً غير مرغوب فيه. كما أن الظروف الصعبة في فلسطين سوف تنهي مشروعها بالفشل^(٥٣). غير أن نفوذ فيلهلم هوفمان تغلب على رأي وزارة الخارجية في شتوتجارت، وصدرت التعليمات إلى الممثلين الدبلوماسيين

البروسيين لدى الدولة العثمانية لتقديم العون للهيكليين. فبذلوا جهوداً كبيرة لحماية الهيكليين في حيفا. ولكن الهيكليين لم يرضوا عن تردد بروسيا في دعمهم، وأصيبوا بخيبة أمل كبيرة^(٥٤).

وإذا استثنينا الدعم الذي قدمته برلين للهيكليين أثناء المفاوضات الأولى مع الباب العالي، فإن المستعمرات الألمانية في فلسطين لم تتمكن من إثارة اهتمام حكومتي برلين وشتوتجارت خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٤. أما على صعيد الرأي العام الألماني فقد حظي مشروع الهيكليين منذ بدايته بتأييد الصحافة الوطنية: ففي نهاية عام ١٨٦٨ نشرت صحيفة *Augusburger Allgemeine Zeitung* مقالة للبروفسور زيب *Sepp*، مؤرخ الكنيسة والسياسي الألماني جاء فيها: "أن قيصر ألمانيا الكبير فريدريش بريروساً *Friedrich Barbarossa* قد قضى نحبه من أجل امتلاك الأرض المقدسة، وترك للألمان واجب استعادة السيطرة على فلسطين العريضة على قلب كل مسيحي. ولا بد أن تجد ألمانيا في نهاية المطاف نصيبها من الاستعمار، ومن أجل هذه الغاية ينبغي تشجيع هجرة الألمان إلى فلسطين^(٥٥)."

أما موقف السلطات العثمانية الذي كان معارضاً لقيام المستعمرات الألمانية في فلسطين، فقد تغير منذ قيام الوحدة الألمانية عام ١٨٧١. فوالي دمشق رشيد باشا، الذي تعرف على نشاط الإنجليبين الألمان في بسرابيا، كان يعطف على الألمان، حتى أنه وعد القنصل الألماني العام في بيروت بمنح الهيكليين قطعة من الأرض في حيفا هدية. وقام هارديج بزيارة الوالي في أثناء وجوده في بيروت، وعرض عليه خطة لاستغلال جبل الكرمل. فما كان من رشيد باشا إلا أن أرسل سكرتيره ليعد تقريراً عن المنطقة المطلوبة في عام ١٨٧١. وكانت خطة هارديج تقوم على إنشاء مصح على قمة الكرمل، وربطه بمسبح على شاطئ البحر. ورغم جهود القنصل الألماني فريدريش كيلر، *Friedrich Keller*، في سبيل تحقيق

هذا المشروع، امتنعت الحكومة العثمانية عن إصدار فرمان بإهداء جبل الكرمل للهيكليين^(٥٦).

وحدث تغيير في موقف وزارة الخارجية الألمانية من الهيكليين بعد عام ١٨٧٥. وكان السبب في ذلك المظاهرات التي قام بها المسلمون في فلسطين في أثناء الحرب البلقانية في ذلك العام. إذ خشي القناصل الأجانب قيام تحرك إسلامي ضد الأجانب في فلسطين، وعلى رأسهم المستعمرون الألمان^(٥٧). وبناء على طلب الهيكليين، وافقت الحكومة الألمانية على إرسال بوارجها الحربية إلى الموانئ الفلسطينية في مظاهرة عسكرية، القصد منها تطمين المستعمرين الألمان. وفي ٢ حزيران ١٨٧٧ أصدر وزير الخارجية الألماني فون بيلوف، Von Buelow. تعليماته إلى السفير الألماني في إسطنبول بالخطوة الاستثنائية التي اتخذتها الحكومة الألمانية. وجاء في هذه التعليمات: "وافق القيصر على طلب المستشار بسمارك إرسال قواتنا البحرية إلى الشرق، آخذاً بعين الاعتبار الوضع الراهن هناك .. إن الهدف الأول للأسطول ظهور العلم الألماني في الموانئ التركية من أجل حماية رعايانا هناك، ومن أجل التعبير عن اهتمام حكومة القيصر برعاياها في ضوء قلقهم الناشئ عن الحرب ... وحماية أرواحهم وممتلكاتهم، بالتدخل الفعال إذا اقتضت الضرورة ذلك"^(٥٨).

وأصدرت وزارة الخارجية في برلين سلسلة من التعليمات إلى سفرائها في أوروبا لإقناع الدول الأوروبية بأن ليست وراء إرسال الأسطول الألماني إلى الموانئ العثمانية أية دوافع سياسية، وأن السبب الوحيد هو الدفاع عن الرعايا الألمان في الشرق^(٥٩).

أما على الصعيد المحلي في فلسطين، فقد شعر المستعمرون الألمان في شباط ١٨٧٧، بينما كان مئات الشباب من المسلمين يتجهون إلى يافا وحيفا للسفر

إلى سالونيك للمشاركة في القتال، أنهم قد يتعرضون للأذى. وقام وكيل ضابط سابق ألماني بتدريب الشباب الألمان على التمارين العسكرية في مستعمرة سارونا. وطلب هوفمان من القيصر حماية المواطنين الألمان من أي اعتداء محتمل من جانب المسلمين. وفي يوم عيد الفصح من عام ١٨٧٧ أرسى الطراد الألماني غاتسيله، Gazelle، في ميناء يافا. وكان عليه أربعمئة جندي وثمانية عشر مدفعاً. وكان يقود الطراد الأمير فون هاكه، Graf Von Hacke؛ وجاء هوفمان وممثلون عن الهيكلين إلى ميناء يافا لتقديم شكرهم لقائد الطراد لحماية الحكومة الألمانية لمواطنيها. ولما رد قائد الطراد على زيارة هوفمان ورفاقه بزيارة مستعمرة سارونا، أقام المستعمرون الألمان الاحتفالات الضخمة بهذه المناسبة. وحدث شيء مماثل لذلك عندما زار الطراد نفسه ميناء حيفا في الفترة نفسها. وفي صيف العام نفسه قامت أربع بوارج حربية ألمانية بزيارة الساحل السوري والفلسطيني^(٦٠).

وبدأت بعد هذه المظاهرة العسكرية مرحلة من العلاقات الودية بين الهيكلين والحكومة الألمانية، واستجابت الحكومة الألمانية لطلب الهيكلين بدعم مدارسهم في فلسطين، فقدمت وزارة الخارجية الألمانية مبلغ ٣٧٥٠ ماركاً منحة سنوية لهذه المدارس. وكان هذا المبلغ يعادل ربع الموازنة السنوية لتلك المدارس. ومن الجدير بالذكر أن هذه المنحة هي المعونة المالية الرسمية الوحيدة التي قدمتها الحكومة الألمانية للهيكلين منذ بداية مشروعهم الاستعماري في فلسطين عام ١٨٦٨ وحتى عام ١٩١٨.

وفي عام ١٨٨٠ سعى الهيكليون إلى اعتراف الحكومة العثمانية بالتنظيم الإداري المستقل لمستعمراتهم. وأيدهم في هذا المسعى القنصل الألماني العام في القدس مينشهازون، Muenchhausen؛ غير أن مساعدهم باء بالفشل. كما فشلت محاولتهم لدفع وزارة الخارجية الألمانية إلى التوسط لدى الحكومة العثمانية لتوسيع حقوق الأجانب المقيمين في الولايات العثمانية^(٦١). وحدثت أزمة عنيفة بين

الهيكلين والحكومة الألمانية سببها الخدمة العسكرية في ألمانيا: ذلك أن عدداً قليلاً من المستعمرين الألمان قد أتم الخدمة العسكرية الإجبارية في ألمانيا قبل الهجرة إلى فلسطين؛ وكان هؤلاء يتمتعون بالجنسية الألمانية وفقاً للقانون الألماني. أما الذين كانوا دون سن السابعة عشرة عندما غادروا ألمانيا، ولم يعودوا إليها للقيام بالخدمة العسكرية، فقد كان من الصعب منحهم حقوق المواطنة الألمانية. ومن المعروف أن العديد من الألمان وغيرهم قد دخل في حماية القنصليات الألمانية في فلسطين، إمّا بصفتهم مواطنين يتمتعون بحق المواطنة الألمانية، Reichsangehoerige، وإمّا بصفتهم رعايا تحت الحماية، Schutzgenossen. وفي عام ١٨٨٠ أصدر المستشار الألماني بسمارك تعليمات إلى القناصل الألمان في الدولة العثمانية يطلب فيها رفع الحماية عن من يقضٍ الخدمة العسكرية في الجيش الألماني.

ودخلت الأزمة مرحلتها الحرجة إثر وصول خليفة القنصل مينشهاوزن، الدكتور رايتس، Reitz، إلى القدس عام ١٨٨١: فقد بدأ يدعو الهيكلين إلى مكتبه واحداً بعد الآخر، ويتهمهم بأن القصد من مشروعهم الاستعماري في فلسطين هو التهرب من الخدمة العسكرية في الجيش الألماني. ولما حاول رايتس أن يرفع الحماية عن بعض الهيكلين، ثار غضب هوفمان زعيمهم، وبعث باحتجاج شديد اللهجة إلى المستشار الألماني. وقال في رسالته الاحتجاجية هذه: إذا كان رايتس يتصرف بناء على تعليمات من وزارة الخارجية، فإن الهيكلين سوف يبحثون عن دولة أخرى للدخول في حمايتها، وربما اضطروا إلى الانتقال إلى بلد آخر. ورجا هوفمان المستشار الألماني أن يعتبر العمل في المستعمرات الألمانية في فلسطين، ولعشرين سنة قادمة، كخدمة عسكرية. وطلب تعديل قانون الخدمة العسكرية الألماني، بحيث يأخذ بعين الاعتبار وضع الهيكلين في

فلسطين. فإذا تعذر ذلك طلب هوفمان إبقاء الوضع كما هو عليه حتى عام ١٨٨٤، ليتمكن الهيكلليون من إيجاد حل آخر^(٦٢).

وجاء رد المستشار الألماني ليؤكد أن تصرفات رايتس مبنية على تعليمات تلقاها من وزارة الخارجية الألمانية، وأنه من المتعذر استثناء الهيكليين في قانون الخدمة العسكرية. ولكنه اعترف بحقهم في التمتع بالحماية القنصلية الألمانية، شريطة أن يطبق عليهم قانون الخدمة العسكرية اعتباراً من عام ١٨٨١^(٦٣). ومنذئذ شرع الهيكليون يرسلون أبناءهم إلى ألمانيا للقيام بالخدمة العسكرية هناك، ومدتها ثلاث سنوات^(٦٤).

وحدث تغيير مهم في السياسة الألمانية نحو الدولة العثمانية في الثمانينات من القرن التاسع عشر، ففي عام ١٨٨٠ لَبَّى المستشار الألماني بسمارك طلب السلطان العثماني بتزويد بلاده بالخبراء الماليين والعسكريين. وبدأت ألمانيا منذئذ الغزو الاقتصادي، Penetration Pacifique، للدولة العثمانية. وأصبح دعم الدولة العثمانية وتقويتها، على أمل أن تكون في يوم ما حليفة لألمانيا، هدفاً مهماً من أهداف السياسة الخارجية الألمانية. واستقدمت الدولة العثمانية العديد من الخبراء العسكريين والإداريين الألمان. وأخذ الشباب العثماني يتردد على المعاهد العسكرية والعلمية الألمانية. وبدأ بنك فلسطين الألماني Deutsche Palaestina Bank نشاطه في القدس، ثم فتح فرعاً له في يافا وآخر في حيفا. وأخذت البواخر الألمانية تنزود بانتظام على الموانئ العثمانية. وتأسست في عام ١٨٨٩ شركة بواخر الشرق الألمانية، die Deutsche Levante -Linie، وبدأت رحلاتها بأربع بواخر، ما لبثت أن زادت عدد بواخرها إلى العشرين في مطلع القرن العشرين^(٦٥). وفي عام ١٨٨٨ حصلت شركة ألمانية على امتياز مدّ سكة حديد الأناضول^(٦٦).

وفي العام نفسه اعتلى عرش ألمانيا القيصر فيلهلم الثاني. وبعد عام من ذلك قرر أن تكون أول زيارة له خارج ألمانيا إلى السلطان العثماني. وقد أعجب القيصر بآراء السفير الألماني في إسطنبول، البارون هاتسفيلد، Baron Hatzfeld، (١٨٧٩-١٨٨١) بشأن التعاون الألماني-العثماني. فقد رأى هاتسفيلد أن فرنسا تمتعت بوضع متفوق في الدولة العثمانية حتى حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨، وأن إنجلترا، التي حاولت الحلول محل فرنسا، قد أثارت شكوك الأتراك بها بعد أن ضمت قبرص إليها عام ١٨٧٨، واحتلت مصر عام ١٨٨٢. وينتهي السفير الألماني السابق إلى القول: إن فراغاً قد وجد نتيجة لذلك، ولا بد لقوة أوروبية من ملئه، وإن ألمانيا هي الدولة المؤهلة لملء هذا الفراغ^(٦٧).

في نطاق الانفتاح العثماني على ألمانيا، ورغبة هذه الأخيرة في توسيع علاقاتها مع الدولة العثمانية، لم يكن للهيكلين إلا أثر ضئيل جداً في هذا المجال؛ إذ حرصت برلين على إزالة مخاوف العثمانيين من تجميع الأجانب على أراضيهم، كما أن فلسطين تقع خارج نطاق المصالح الألمانية التي تركزت على طول سكة حديد بغداد.

لقد دار جدل طويل في أوساط وزارة الخارجية الألمانية حول موقف الحكومة الألمانية من الاستيطان الألماني في الدولة العثمانية على ضوء التطورات الجديدة. ففي عام ١٨٩١ طلب خليفة بسمارك، المستشار كابريفلي، Caprivi، من وزارة الخارجية إبداء رأيها في اقتراح تقدم به السلطان العثماني إلى القيصر فيلهلم الثاني، يتضمن إنشاء مستعمرات ألمانية على طول سكة حديد بغداد. وكانت أول مذكرة من وزارة الخارجية تناولت هذا الاقتراح قدمها الهر كيدرلين، Kiderlen، من الدائرة السياسية في الوزارة. وقد بنى كيدرلين تحليله على تجربة الهيكلين في فلسطين. وجاء في مذكرته هذه:

"إن المستعمرات الألمانية في فلسطين لا تقدم لنا مثلاً مشجعاً. فالمستعمرون يكسبون قوتهم بصعوبة، ويتعرضون لعداء السكان المحليين والسلطات التركية. وإذا كان المستعمرون المقترح توطينهم في آسيا الصغرى من الألمان، فسيواجه قناصلنا التذمر الدائم من السلطات المحلية، كما ستواجه سفارتنا تدخل الباب العالي المستمر. وهذا أمر لا بد من أخذه في الحسبان. وقد يدمر علاقتنا الطيبة مع الأتراك بدلاً من أن ينميها. والمستعمرات في فلسطين خير مثال على ذلك" (٦٨).

وقدم مدير الدائرة الاستعمارية في وزارة الخارجية الهير كايزر، Kayser، مذكرة مماثلة للمذكرة السابقة. يتبين لنا من هاتين المذكرتين أن وزارة الخارجية الألمانية كانت ترى في مستعمرات الهيكليين في فلسطين مثلاً سيئاً، وسبباً دائماً لتهديد العلاقات الألمانية - العثمانية بالتدهور. والواقع أن شكاوى الهيكليين أثارت غضب السلطات العثمانية؛ كما أن وجود المستعمرات الألمانية في فلسطين أثار حفيظة الدول الأوروبية ضد ألمانيا. ولم تكن فلسطين، بإمكاناتها المحدودة، البلد القادر على تلبية احتياجات ألمانيا: فلا هي مصدر مهم للمواد الأولية، ولا هي سوق واسعة قادرة على استيعاب منتجات ألمانيا. ولذلك لم يكن فيها ما يستحق اهتمام ألمانيا الحقيقي في هذه الفترة.

ولعل أبرز الأحداث السياسية التي شهدتها فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر، زيارة القيصر الألماني فيلهلم الثاني، في تشرين الأول عام ١٨٩٨؛ وهي زيارته الثانية للشرق. وكان الغرض المعلن من هذه الزيارة الحج إلى الأماكن المقدسة: ففي ٢٥ تشرين الأول من ذلك العام، أرست ثلاث بوارج ألمانية نُقِلَ القيصر وحاشيته في ميناء حيفا. وفي صباح اليوم التالي تجمّع كافة أفراد المستعمرة الألمانية في حيفا في باحة القنصلية الألمانية من أجل تحية القيصر. وقام فريدريش لانجه، Freidrich Lange، رئيس الجماعة الهيكلية في حيفا

(ومؤرخ الجمعية)، بإلقاء كلمة في حضرة القيصر، شكره فيها على الدعم والمؤازرة التي يلقاها الهيكليون من القيصر، وبخاصة في ميدان التعليم. وأكد على ضرورة توثيق الصلات بين الهيكليين والوطن الأم. وردّ القيصر عليه بالإعراب عن سعادته إذ يرى في قلب الأرض المقدسة مستعمرة ألمانية لها علاقات وثيقة بالوطن الأم، وقال بأنه سوف ينقل إلى ملك فورتمبرغ ما حققه مواطنوه من إنجازات؛ وأكد حمايته لكافة الألمان. كما ألقى الدكتور شوماخر، Dr, G. Schumacher، ابن أحد قادة الجمعية، كلمة في حضرة القيصر أشار فيها إلى قيمة الأبحاث العلمية الألمانية عن فلسطين وأحوالها^(٦٩). وتجوّل القيصر في المستعمرة، ثم اتجه إلى يافا ومنها إلى القدس. وخلال سفره الذي استغرق يومين، زار القيصر مستعمرات يافا وسارونا وريفاييم، حيث استقبل استقبالاً حافلاً^(٧٠).

وفي أثناء هذه الزيارة أصبحت فلسطين والمستوطنون الألمان فيها موضوع الساعة في ألمانيا. وتأسست في شتوتجارت في تشرين الأول ١٨٩٩ "جمعية تطوير الاستيطان الألماني في فلسطين" Gesellschaft Zur Foerderung "der deutschen Ansiedlungen in Palaestina" تحت رعاية البارون فون إيليريكسها وزن، Freiherr Von Ellerichshausen، من أجل تزويد الجمعية بالتبرعات المالية لتوسيع نشاطها وشراء المزيد من الأرض. وتولى إدارة الجمعية الأمير فون أوراخ، K. Von Urach، بينما تولى رئاستها الفخرية النائب العام في المملكة الدكتور فون روب، Von Rupp؛ وتمكنت هذه الجمعية من جمع مبلغ ثلاثمئة ألف مارك، حوّلت إلى جمعية الهيكل، فاشترت به قطعة من الأرض مساحتها ثمانية كيلومترات مربعة بالقرب من اللد، غير بعيد عن سكة حديد يافا - القدس. وأنشأت عليها مستعمرة فيلهلما Wilhelma^(٧١).

وإذا كانت زيارة القيصر لفلسطين قد بعثت الحماس في نفوس سكان مملكة فورتمبرغ، فأنشأوا جمعية تطوير الاستيطان الألماني في فلسطين، فلم يتجاوز دعم القيصر للهيكليين إعجابه بمنجزاتهم، وتعاطفه معهم، ووعدده لهم بأن يسعى لدى السلطات العثمانية لتُعَامِلَهُم المعاملة التي يستحقونها^(٧٢). وإذا عدنا إلى وثائق الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الألمانية لمعرفة نتائج زيارة القيصر هذه، لم نجد فيها ذكراً أو إشارة للمستعمرات الألمانية في فلسطين: فقد لخص نتائج هذه الزيارة القائم بالأعمال الألماني في إسطنبول في تقرير بعث به إلى وزارة الخارجية^(٧٣)، ووُزِعَت نسخ من هذا التقرير، بناء على أوامر القيصر، إلى كافة السفارات الألمانية في العالم؛ وقد ورد في هذا التقرير أن الدافع الأول لزيارة فلسطين هو دافع ديني. ولم ترد فيه أية إشارة للمستعمرات الألمانية فيها. والواقع أن زيارة القيصر لفلسطين لم تُحَدِّث أي تغيير في السياسة الألمانية الرسمية نحو المستعمرات الهيكلية؛ غير أن فلسطين بقيت منذئذ موضوع اهتمام الرأي العام الألماني؛ فقد أثار الوصف الحماسي للمستعمرات موجة من التعاطف الشعبي، ساعدت المستعمرين على التغلب على المصاعب التي واجهوها، وبناء ثلاث مستعمرات جديدة. غير أن الأموال اللازمة لبناء هذه المستعمرات جُمِعَت من مواطني مملكة فورتمبرغ وحدها^(٧٤). وذهبت جهود جمعية تطوير الاستيطان الألماني في فلسطين من أجل الحصول على تعاون القيصر الألماني لشراء الأسهم في المؤسسة المالية التي أنشأتها، سدى. هذا وقد لقيت الجمعية المذكورة اهتماماً خاصاً في مملكة فورتمبرغ: ففي عام ١٩١٠ طلب وزير خارجية المملكة من ممثليها في برلين أن يتوسط لدى وزارة الخارجية الاتحادية لتضغط على الدويتش بانك، Deutsche Bank، لمنح جمعية الهيكل قرضاً مقداره مئة ألف مارك، للحفاظ على الطابع الألماني لمستعمرة سارونا، وتطوير مستعمرتي فيلهلما وبيت لحم في الجليل. وبينما كانت المساعي جارية للحصول على القرض المطلوب،

أنفقت حكومة برلين مبلغاً يساوي عشرين ضعف هذا المبلغ على مؤسسة القيصرية أوغستا فكتوريا، Kaiserin Auguste Victoria Stiftung، في القدس التي أنشئت تخليداً لزيارة زوجة القيصر للمدينة المقدسة^(٧٥).

ومع مدّ سكة حديد الحجاز، وقيام الفرنسيين بمد السكك الحديدية في فلسطين، ازداد قلق الهيكلين، وشعروا أن البلاد تكاد تقع تحت النفوذ الفرنسي. وفي صيف عام ١٩١٣ قام وفد من جمعية الهيكل في فلسطين، مؤلف من رئيسها كريستيان روهزر، Christian Rohrer، وغوتليب شوماخر، Gottlieb Schumacher، بزيارة شتوتجارت وبرلين للسعي لدى حكومة فورتمبرغ وحكومة برلين الاتحادية لتجنّب وقوع فلسطين في منطقة النفوذ الفرنسي. وفي آب ١٩١٣، قدّم الوفد مذكرة إلى فون روزنبرغ، Von Rosenberg، مدير الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية في برلين؛ وسأل شوماخر المسؤول الألماني عن مصير المستعمرات الألمانية في حالة قبول ألمانيا بوقوع فلسطين تحت الهيمنة الفرنسية. وتضمنت مذكرة الوفد الهيكلية إشادة بدور المستعمرين الألمان في تطوير فلسطين، ورفع سمعة ألمانيا. كما اقترحت إيجاد حلّ لمستقبل فلسطين تقبل به الدول الكبرى، وذلك بأسرع وقت ممكن، وقبل أن يفوت الأوان. واقترح شوماخر في هذا الصدد وضع فلسطين (من الحدود المصرية إلى رأس الناقورة شمالاً، وحتى سفوح جبل الشيخ شرقاً) تحت حكم أمير أوروبي. وبزّر اقتراحه هذا بأنه لا يتعارض والمصالح البريطانية والروسية في المنطقة. واقترح بالمقابل منح فرنسا المنطقة الواقعة شمال فلسطين، دون الإضرار بمصالح الدول الكبرى فيها^(٧٦).

وسعى الوفد لدى وزارة خارجية مملكة فورتمبرغ لقبول مقترحاته السابقة الذكر، فأيدتها، وطلبت من ممثلها في برلين أن يجسّ نبض وزارة الخارجية الاتحادية. فجاء الرد: إن سورية لا تقع في منطقة اهتمام ألمانيا، لأنها بعيدة عن سكة حديد بغداد^(٧٧). وهكذا خابت آمال الوفد الهيكلية من موقف حكومة برلين، وعاد إلى

فلسطين خالي الوفاض. وجاءت الاتفاقية الفرنسية - الألمانية لعام ١٩١٤^(٧٨) لتؤكد اعتراف ألمانيا بوضع فرنسا الخاص في فلسطين، وبخاصة في موضوع بناء السكك الحديدية.

غير أن فكرة فصل فلسطين عن الدولة العثمانية ووضعها تحت الهيمنة الأوروبية، لم تغب عن ذهن بعض المسؤولين الألمان: فقد اقترح السفير الألماني في إسطنبول، في رسالة بعث بها إلى المستشار الألماني الأمير فون هيرتلنغ، Graf Von Hertling، إنشاء مملكة في فلسطين لحل مسألة الأماكن المقدسة، معتقداً بأن هذا الحل سوف يرضي المسيحيين واليهود في العالم، شريطة إيجاد حلٍّ مُرضٍ للأماكن المقدسة الإسلامية في القدس^(٧٩). وكان القنصل الألماني العام في القدس الدكتور بروده، Brode، قد اقترح على السفير الألماني في إسطنبول إقامة مملكة صغيرة في القدس تضم بيت لحم جنوباً، وتمتد إلى نهر الأردن والبحر الميت شرقاً، وإلى قرية رام الله شمالاً، وأن يعتلي عرشها أمير كاثوليكي ألماني؛ شريطة أن تبقى هذه المملكة تحت السيادة العثمانية الاسمية، وأن تدفع للخزينة العثمانية مليون جنيه إسترليني، وأن يحتفظ المسلمون والمسيحيون واليهود بأماكنهم المقدسة فيها. واقترح بروده أيضاً أن تسعى الحكومة الألمانية لدى الباب العالي للتوسع في الاستعمار اليهودي في فلسطين، ومنح اليهود حكماً ذاتياً في البلاد^(٨٠). والواقع أن هذه المقترحات قد جاءت في فترةٍ بَلَغَ النشاط الصهيوني في ألمانيا أوجه من أجل الحصول على وعد رسمي من الحكومة الألمانية مماثل لتصريح بلفور.

يتضح مما سبق أن الحكومة الألمانية لم تَسعَ إلى تحقيق أية مطالب علنية أو سرية في فلسطين، منذ قيام الرايخ الألماني عام ١٨٧١ وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨؛ كما أنها لم تستغلَّ عنصر المستعمرين الألمان لأغراضها السياسية في البلاد.

علاقات المستعمرين الألمان بالسكان العرب

اتَّسَمَت العلاقات بين المستعمرين الألمان والسكان العرب في فلسطين بالشك والريبة والحذر. لقد أدرك كريستوف هوفمان في أثناء رحلته الاستطلاعية إلى فلسطين عام ١٨٥٨، أن مشروعه لن يحظى بتأييد السلطات العثمانية فحسب، وإنما سيواجه مقاومة حقيقية من جانب السكان العرب، الذين يشكل المسلمون أكثر من ٩٠% منهم^(٨١).

ولما بدأ استيطان الهيكليين في فلسطين، كانوا يحملون أفكاراً واضحة عن العداء العربي لهم. وساهمت أحداث فلسطين في تشدد كل فريق في موقفه. وأدرك العرب أن الهيكليين الألمان ليسوا كبقية المقيمين الأجانب في فلسطين؛ فمشروعهم ليس خيراً كمشاريع الإرساليات التبشيرية المنتشرة في البلاد. واكتشفوا أيضاً أن الألمان قد جاؤوا إلى البلاد تاركين أوطانهم بهدف واحد، هو الاستيلاء على أراضيهم وامتصاص دمائهم^(٨٢). ولذلك كان من المتعذر على مشروع الاستيطان الألماني أن يكسب قلوبهم. وخلافاً لما كان يعتقد أو يزعمه الألمان، لم تساهم إنجازاتهم في فلسطين إلا في بعث كراهية العرب لهم^(٨٣). ونظر الألمان، بالمقابل، إلى العرب نظرة استعلاء وتفوق، فزادت من توتر العلاقات بين الفريقين^(٨٤). وكان قادة جمعية الهيكل يخشون الاختلاط بالسكان العرب والذويان في المجتمع المحلي؛ فهم "شعب الله" المكلف ببناء مملكة الرب في القدس. لذلك تحاملوا على العرب دوماً، وبرروا هذا التحامل في المقالات التي كانوا ينشرونها في مجلتهم Sueddeutsche Warte: فالشرقي في نظرهم "وقح متعجرف بالطبيعة، يمارس السرقة والاستجداء، ولا يحني هامته إلا للقوة والمال"^(٨٥).

وكان قادة الجمعية يحذرون أعضاءها من التزاوج مع العرب. واستغلوا حالة زواج فاشلة بين فتاة ألمانية وشاب مسيحي عربي في دعايتهم هذه. وكانوا يقولون:

"من الأفضل للألمانيات أن يبقين عوانس من أن يلقيين بأنفسهن في أحضان الرعاع".^(٨٦)

ولم يُخفِ كريستوف باولوس، الذي خلف هوفمان في رئاسة جمعية الهيكل بين عامي ١٨٨٤ و ١٨٩٠، والذي كان من أتباع الفلسفة الإنسانية، احتقاره للعرب. وحينما تكونت شركة للنقل بين يافا والقدس من الألمان والعرب واليهود عام ١٨٨٤، وأوكل تنظيمها إلى الألمان، كتب باولوس بهذا الصدد يقول: "تعتبر هذه الاتفاقية نصراً للأمانة الألمانية على دسائس العرب واليهود القذرة. لقد أمكن قيام الشركة لأن إدارتها والإشراف على ماليتها قد أوكلا إلى الألمان، الذين تعترف كافة الأطراف بأمانتهم ومثابرتهم على العمل. دعنا نأمل أن يكون لهذا الإنجاز الذي حققته النزاهة الألمانية، تأثير إيجابي على السكان المحليين. ويمكن اعتبار هذا العمل الأنموذجي عملاً تبشيراً، لأن الهيكلين يؤمنون بأن على الشعب الذي يتوجه إليه المبشرون، أن يتحول إلى كائنات بشرية قبل أن ينظر في أمر تنصيره".^(٨٧)

إزاء هذه النظرة الاستعلائية العرقية، لا عجب إذا عجز الهيكليون عن الوصول إلى قلوب العرب، وإقامة علاقات طيبة معهم. وقد اعترف بهذا الوضع السفير الألماني في إسطنبول، مارشال فون بيبيرشتاين، Marschall Von Bieberstein، في رسالته التي بعث بها إلى المستشار الألماني فون بيلوف، Von Buelow، والمؤرخة في ٨ أيار ١٩٠٩، والتي اقتبس فيها أقوال نائب القنصل الألماني في حيفا^(٨٨).

ورغم حالة الشك والحذر والكراهية التي سادت العلاقات بين المستعمرين الهيكليين والعرب في فلسطين، لم تحدث خلال الحكم العثماني سوى حادثة قتل واحدة، ذهب ضحيتها أحد هؤلاء الألمان، وبسبب استفزازي. وكان سبب الحادثة

التي تمت عام ١٩١٠، مقتل أحد فلاحي قرية الطيرة (قرب حيفا) على يد أحد الألمان من مستعمرة حيفا، في أثناء إقدام الأول على السرقة من المزرعة الألمانية. وثأر أهل القتل لقتيلهم، وهاجموا في اليوم التالي للحادث أحد الألمان، واسمه فريتس أونجر، Fritz Unger، في مستعمرة نويهاردتهوف وأردوه قتيلاً^(٨٩).

وخشي المستعمرون الألمان اعتداء المسلمين عليهم في أثناء الحرب البلقانية (١٨٧٥-١٨٧٨)، وطلبوا الحماية من حكومتهم؛ فرأت هذه أن تبعث ببوارج حربية إلى الشواطئ الفلسطينية. فكانت خطوة لا سابقة لها.

وشعر المستعمرون الألمان بضيق شديد عندما أخذ العرب ينافسونهم في الميدان الاقتصادي؛ فقد حل العرب محل الناقلين الألمان بالشاحنات على طريق حيفا - عكا، كما ألحقوا أضراراً كبيرة بشركة السفريات الألمانية على طريق يافا - القدس، بتخفيض أجور السفر. وواجه الحرفيون الألمان منافسة مماثلة من العرب. وزاد من كراهية العرب للمستعمرين الألمان واليهود حماية الدول الأوروبية الكبرى لهم. ولم يشعر العرب في يوم من الأيام بأن وجود المستوطنين الألمان أو غيرهم فيه أية فائدة لهم^(٩٠).

علاقة المستعمرين الألمان بالطائفة اليهودية

اتخذت جمعية الهيكل موقفاً عدائياً من اليهود واليهودية قبل استيطان أفرادها في فلسطين، لاعتبارات دينية محضة. غير أن هذا الموقف تبدل بعد استيطان الهكليين في فلسطين، ولم يترددوا في التعاون مع المهاجرين اليهود والمستعمرات اليهودية لمواجهة المجتمع العربي المناهض لهم. وأخذ هذا الموقف يتغير مع قدوم آلاف اليهود من شرق أوروبا في منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر، وذلك بسبب منافسة المستعمرين اليهود الجدد لهم في الميادين الاقتصادية.

فقد كان هوفمان، مؤسس جمعية الهيكل، يعتقد أن الأرض المقدسة ينبغي أن تكون ملكاً لشعب الله، وأن الله كان ينوي في البداية منح هذه البلاد للشعب اليهودي، غير أن هذا الشعب غرق في الفساد والرذيلة، ولم يعد شعباً مقدساً. الهيكليون وحدهم هم الذين أوجدوا الشعب المقدس الجديد "شعب الله". وتأكد هذا الاعتقاد لدى هوفمان عند زيارته لفلسطين عام ١٨٥٨، ورأى "حالة اليهود السيئة، وكسلهم وعجزهم عن تخليص البلاد من حالتها المتدهورة". ووجد الألمان في بداية استيطانهم مبرراً للتفاهم مع الأقلية اليهودية، للتخلص من العزلة التي يعيشونها^(٩١).

أما بالنسبة إلى اليهود، فقد حاول زعماء هواة صهيون "حوفيبي تسيون"^(٩٢) الاستفادة من تجربة المستوطنين الألمان في المستعمرات الزراعية؛ وكانوا يترددون عليهم محاولين تجنب الأخطاء التي وقعوا فيها. وحينما بدأت الهجرة اليهودية المنظمة الأولى (١٨٨٢-١٩٠٤) التي تألفت من موجتين كبيرتين هما: الأولى (١٨٨٢-١٨٨٤)، والثانية (١٨٩٠-١٨٩١)، بدأ موقف المستوطنين الألمان يتغير. وكانت المنافسة الاقتصادية وراء هذا الموقف المعادي. صحيح أن نوعية الإنتاج اليهودي من الحرف والصناعات الخفيفة كانت أدنى من نوعية الإنتاج الألماني، إلا أن انخفاض أسعار الإنتاج اليهودي جعل من الحرفيين والصناع اليهود منافسين خطرين للألمان^(٩٣).

وشعر المستعمرون الألمان بالخطر الحقيقي حينما طلب ثيودور هرتسل، Theodor Herzl، في آب ١٨٩٧ من أعضاء المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد في مدينة بازل السويسرية، الموافقة على برنامج الحركة الصهيونية. ومنذ أن صدرت صحيفة "العالم، Die Welt" الناطقة بلسان الحركة الصهيونية في حزيران ١٨٩٧، شعر الهيكليون أنهم يواجهون حركة سياسية يهودية منظمة، تؤكد صحيفتها كل يوم على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

ومنذ مطلع عام ١٩٠٨ شنت صحيفة الهيكليين Sueddeutsche Warte هجوماً على الحركة الصهيونية، وعلى مختلف أوجه نشاطاتها. وكان يقود هذه الحملة فريتس لورخ، Fritz Lorch، أحد الألمان المولودين في فلسطين، والذي انتقل إلى شتوتجارت ليعمل في صحيفة الجمعية. وقد أبرز لورخ عدم ولاء الصهاينة للدولة العثمانية وتعاونهم مع بريطانيا من أجل تمزيق أشلائها. أما الصهاينة فقد حاولوا التقرب من المستوطنين الألمان والتقاوم معهم، حرصاً منهم على تجنب الصدام مع الإمبراطورية الألمانية الناشئة. وامتنعت صحيفة "دي فيلت" الصهيونية عن الرد على حملة لورخ الإعلامية^(٩٤).

وبمناسبة انتقال صحيفة الهيكليين Sueddeutsche Warte من شتوتجارت إلى القدس في كانون الثاني عام ١٩١٢، نشرت صحيفة "دي فيلت" مقالاً مطولاً طالبت فيه المستوطنين الألمان أن يبدوا مزيداً من التفهم نحو المصالح المشتركة لليهود والألمان. وأكد المقال على الفوائد التي يجنيها المستوطنون الألمان والإمبراطورية الألمانية من المهاجرين اليهود، الناطقين باللغة الألمانية، والذين يفضلون إقامة علاقات تجارية مع ألمانيا^(٩٥).

ومن الجدير بالذكر أن ألمانيا، في هذه الفترة، كانت مقرراً لمعظم المؤسسات والمراكز التابعة للحركة الصهيونية. وانساق المستوطنون الألمان وراء سياسة ألمانيا الرسمية منذ عام ١٩١٣؛ تلك السياسة التي كانت تحبذ الاستفادة من الوجود اليهودي في فلسطين من أجل تنمية المصالح الألمانية فيها. وشهدت العلاقات بين الأقليتين: الألمانية واليهودية، تحسناً ملحوظاً عشية قيام الحرب العالمية الأولى^(٩٦). غير أن هذا التحسن في العلاقات كان مؤقتاً ولفترة قصيرة جداً.

المصادر:

- Hajjar. J.: L'Europe et les Destineesdu Proche Orient, Bloud and (١)
Gay, Belgium, 1970. pp. 326-7.
- Hy amson, A.M.: British Projects for the Restauration of Jews to
Palestinem, in "Publications of the American Jewish Historical
Society", 1918, No. 2, pp. 129-131.
- Hajjar, J.: op. cit, pp. 327-8 (٢)
- Hyamson, A.M.: op. cit, p. 136, Hajjar, J.: op. cit, p. 329 (٣)
- Tibawi, A.L.:British Interests in Palestine, Oxford University Press, (٤)
London, 1961, p. 33.
- Hyamson, A.M.: The British Consulate in Jerusalem in relation
to the Jews of Palestine (1838-1914) London,
1939, vol. I.p. 45.
- (٥) ولد موسى مونتفيوري عام ١٧٨٤ في ليفورن Livourne. ونجح في حياته كرجل أعمال
يهودي. وأصبح نبيلاً بسبب صلة النسب بأسرة روتشيلد في بريطانيا. وانسحب في عام
١٨٢١ من أعمال التجارة، وكرس حياته للأعمال الخيرية الاجتماعية المتعلقة باليهود.
وقام بعدة زيارات لفلسطين بين عامي ١٨٢٧ و ١٨٧٥.
- Loewe, L. (ed.): Diaries of Sir Moses and Lady Montefiore,
London 1890, vol. I, pp. 165 ff.
Hajjar. J.: op. cit, p, 327.
- Hajjar, J.:op. cit, p. 330-331 (٦)
- (٧) حول تفاصيل إقامة مولتكه في إسطنبول انظر:
- Moltke, Helmuth vom: Briefe ueber Zustaende und Begebenheiten in
der Tuerkei aus den Jahren 1835 bis 1839, Berling, 1893.
- Wagner, R.: Moltje und Muehlbach zusammen unter dem Halbmonde (٨)
(1837-1839). Berlin, 1893.

Moltke, Helmuth von: Vermischte Schriften, Berlin, 1892 , Bd. 2,
pp. 279-288.

Lewin, E: The German Road to the East, William Heinemaunm
London, 1916, pp. 22-3.

Hajjar, J.: Op. Cit., P. 369.

Geschichte der Deutschen Evangelischen Kirche und Mission (٩)
im Heiligen Lande, p. 4.

Tibawi, A. L.: Op. cit, pp. 44-5

Richter. J.: A History of Protestant Missions in the Near East,
A.M.S., Press, New York (1970) Reprinted Edition of
1910, p. 237.

Brugger. Hans: Die deutschen Siedlungen in Palaestinam (١٠)
Bern, 1909, pp. 11-12.

Carmel, Alex: Geschichtes Haifas in der tuerkischen Zeit
(1516-1918), Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1975, p. 80.

(١١) ولد كريستوف هوفمان في بلدة ليونبرغ Leonberg في الثاني من كانون الأول عام
١٨١٥، وانتقل مع والده إلى كورنتال. وكان يتردد على خاله الهر باومان Baumann في
شنتوجارت. واهتم كريستوف منذ صباه بالشعر والتاريخ. ودرس في جامعة توبنجن الفلسفة
والتاريخ. وأعجب بهيجل وكانت من الفلاسفة الألمان. ولما أنهى دراسته الجامعية عام
١٨٢٧ اشتغل معلماً في مدرسة أنشأها صديقه عمانوئيل بولوس بالقرب من لودفيجزبورغ.
غير أنه لم يقم فيها طويلاً، واضطر تحت ضغط والده إلى العمل في مدارس الكنيسة في
فورتمبرغ. وفي عام ١٨٤١، كرس هوفمان نفسه للتعليم في المدرسة التابعة للجمعية التي
يرأسها والده.

Brugger, H. : Op. cit., pp. 12-20 (١٢)

Brugger, H. : Op. cit., pp. 12-32

Hoffmann, Christoph : Erinnerungen aus meiner Jugend,
Jerusalem, 1881, p. 720.

Carmel, Alex; The German Settlers in Palestine and their (١٣)
Relations with the local Population and the Jewish
Community (1868-1918) in Studies on Palestine
during the Ottoman Period, Jerusalem.1975, p. 442.

Geschichte der deutschen Evangelischen Kirche. pp. 132-3
Gaeschichte وسيشار إليه فيما بعد

Alonzo, Alphonse d' : Les Allemands en Orient, Oscar
Schepens, Bruxelles, 1904, p. 37

Brugger, H. : op. cit, pp. 26-7

Carmel, Alex: Geschichte Haifa ... p. 81

(١٤) ولد جورج دافيد هارديج في الثاني من نيسان عام ١٨١٢ في قرية اغلوزهايم
Eglosheim قرب لودفيجزبورغ في مملكة فورتمبرغ. أتم دراسته الثانوية وعمل في
التجارة. ثم دخل في منظمة سرية تنادي بالنظام الجمهوري. وتقل بين شتوتجارت وبلجيكا
وباريس خلال عامي ١٨٣٠ و ١٨٣١. وفي باريس تعرف على عدد من اللاجئين
السياسيين الألمان المتحمسين للنظام الجمهوري. وصادق تاجر كتب اسمه فرانك Frank
كان قد أصدر في باريس صحيفة "Le Siècle". وعاد فرانك إلى فورتمبرغ في خريف
١٨٣١. وعزم هارديج على دراسة الطب في جامعة غوتجن فلم يوفق، إذ كانت السياسة
والنضال من أجل الحرية أعز على قلبه من الدراسة. فشارك في محاولة العصيان الفاشلة
في فورتمبرغ عام ١٨٣٢، وحكم عليه بالسجن لمدة أربعة عشر عاماً. ثم استأنف الحكم
عليه لدى محكمة الاستئناف في شتوتجارت، فخفضت الحكم عليه بالسجن إلى تسعة
أعوام. درس هارديج أثناء وجوده في السجن الكتاب المقدس، فأثر ذلك على سلوكه وفكره.
ولما أفرج عنه عام ١٨٤٠ لم يسمح له بالإقامة في فورتمبرغ، فرحل إلى سويسرا حيث بقي
حتى عام ١٨٤٤ حينما سمح له بالعودة إلى وطنه بمناسبة الاحتفال باليوبيل الفضي
لاعتلاء الملك فيلهلم Wilhelm عرش فورتمبرغ.

- Brugger, H: Op. cit, pp. 5-10
- Brugger, H. : Op. cit, p. 35 (١٥)
- (١٦) المصدر نفسه، ص ٣٥-٣٦.
- Carmel, Alwx, The German settlers., p. 443.
- Geschichte .., p. 134
- Carmel, Alex, Op. cit, p. 443, Geschichte ... p. 134. (١٧)
- Brugger, H. Op. cit, p. 37 (١٨)
- Carmel, Alex: Geschichte Haifas ... p. 81.
- Brugger, H. : Op. cit, p. 38. (١٩)
- (٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٩.
- (٢١) المصدر نفسه، ص ٤٢-٤٣.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ٤٥-٤٧.
- Carmel, A. : Geschichte Haifas ... p. 82.
- Eliav, M. : German Interests and the Jewish Community in (٢٣)
the 19th Century Palestine, in "Studies on Palestine during the
Ottoman Period, Jerusalem, 1975" p. 431.
- Brugger, H. Op. cit, p. 51. (٢٤)
- Sueddeutsche Warte, 22.1.1869 انظر تفاصيل عملية الشراء في مجلة (٢٥)
- Brugger, H. : Op. cit, p. 51. (٢٦)
- Carmel, A. : Geschichte Haifas ... p. 83. (٢٧)
- Grothe, Hugo: Bevoelkerung und Wirtschaftlich Lage (٢٨)
der Schwaebischen Ansiedlungen in Palaestina,
Palaestina 1.1902,p. 233.

Carmel, A. : Geschichte Haifas ... p. 84.

Carmel, A. : The German Settlers ... (٢٩)
p.445.

Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abteilung (٣٠)
V.II, Po. 25, Bd. I.

Carmel, A. : Geschichte Haifas ... pp. 87-9. (٣١)

Rosen, F. : Oriental Memoirs of a German Diplomatist, (٣٢)
Methuen and Co., London, 1930. pp. 36-7.

Bruger, H. : Op. cit, p. 52. (٣٣)

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٥٣-٥٤.

Brugger, H. : Op. cit, p. 61. (٣٥)

Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. (٣٦)
VII, Po 25, Bd. I.

Brugger, H. : Op. cit., pp. 62-3. (٣٧)

Answaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, (٣٨)
Po 25, Palaestina, Bd. I.

Brugger, H. : Op. cit, p. 95. (٣٩)

(٤٠)

(٤١) المصدر نفسه، ص ٩٤.

swaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, (٤٢)
Po 25, Palaestina

تقرير القنصل الألماني في القدس فيليب فورست Ph. Wurst إلى سكرتير لجنة التقسيم
الفنية الفلسطينية في ١٢ تموز ١٩٣٨.

- Geschichte ... pp. 136-7 (٤٣)
- (٤٤) أنشئت جمعية بيت المقدس في برلين في ١٨٥٢/١٢/٢ من أجل دعم المشروعات
التبشيرية الإنجيلية الألمانية في فلسطين
Geschichte ..., pp. 51-62.
- Geschichte ... p. 137, Brugger, H. : Op. cit, p. 66. (٤٥)
- Seidel, H. J. : Der Britische Mandatstaat Palaestina im (٤٦)
Rahmen der Weltwirtschaft, Walter de Gruyter,
Berlin, 1926, pp. 81-2.
- Brugger, H. : Op. cit, pp. 85-9. (٤٧)
- (٤٨) المصدر نفسه، ص ٨٨.
- Carmel, A. : The Political Significance of German Settlement in (٤٩)
Palestine (1868-1918), in Germany and the Middle East
1835-1939 Tel-Aviv University. Tel-Aviv, 1975, pp. 48-9.
- (٥٠) المصدر نفسه، ص ٥٠.
- Hauptstaatarhiv Stuttgart, Koeniglich Auswaertiges Amt (٥١)
Sueddeutsche Warte, 1.7. 1858, p. 2., 22.7. 1858, p. 114, (٥٢)
16.9. 1858, pp. 145-6.
- Lange, Friedrich: Geschichte des Tempels, Stuttgart,
1899, p. 167.
- Hauptstaatarhiv. Akten des Kabinets IV, Nr. 1585. (٥٣)
- Sueddeutsche Warte, 12.2. 1874, pp. 25-6, 26.3. 1874, (٥٤)
PP. 70-71.
- Brugger, H. : Op. cit, p. 48. (٥٥)
- (٥٦) المصدر نفسه، ص ٥٨-٦٠.
- Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei126, (٥٧)

Muenchhausen an Bismarck, Jerusalem, den 30 Mai 1897.

- (٥٨) المصدر نفسه.
- Carmel, A. : The Political Significane ... p. 54. (٥٩)
- Brugger, H. : Op. cit, pp. 84-5. (٦٠)
- Carmel, A. : The Political Significane ... p. 55. (61)
- (٦٢) المصدر نفسه، ص٥٦.
- Sueddeutsche Warte Vom 18 Maerz 1882, p.4 (63)
- Carmel, A. : The Political Significane ... p. 57. (٦٤)
- Brugger, H.Op.cit.p. 90. (٦٥)
- Carmel, A. : The Political Significane ... p. 59. (٦٦)
- Holborn, H.: Deutschland und die Tuerkie (1878-1890) Berline, (٦٧)
1926, p. 106.
- Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 189, vol. I. (٦٨)
- Brugger, H.Op.cit.p. 92. (٦٩)
- (٧٠) المصدر نفسه، ص ٩٣.
- (٧١) المصدر نفسه، ص ٩٣.
- Carmel, A. : The Political Significane ... p. 63. (٧٢)
- Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Preussen 4 (٧٣)
(geheim), Vol.9, Schlaezer an Hohenlohe, Istambul, 15.11. 1898.
- نص تقرير القائم بالأعمال الألماني في اسطنبول.
- Carmel, A. : The Political Significane ... p. 63. (٧٤)
- (٧٥) المصدر نفسه، ص ٦٥-٦٦.

- (٧٦) المصدر نفسه، ص ٦٧-٦٩.
- (٧٧) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 177, Vol.10.
- (٧٨) Hurewitz, j. Diplomacy in the Near and Middle East, Princeton, Vol. 1, pp. 267-276.
- (٧٩) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 175 (e), Abteilung I A, Bd. 2.
- (٨٠)
- (٨١) Sueddeutsche Wrate Vom 23.9 1858, p. 125, 14. 10. 1858, p. 161.
- (٨٢) جريدة الأهرام، القاهرة، عدد ٢٧ حزيران ١٨٩٨.
- (٨١) Sueddeutsche Wrate Vom 23.9. 1858, p.125, 14.10.1858, p. 161.
- (٦٩) Sueddeutsche Warte Vom 27.4.1914, pp. 133-4.
- (٨٤) Deutsche Kolonial Zeitung, Berlin, 1884, pp. 83-4.
- (٨٥) Sueddeutsche Warte, 27.4.1911, pp. 131-2.
- (٨٦) Carmel, A. : The German Settlers ... p. 448.
- (٨٧) Sueddeutsche Warte. 30.00. 1884, pp. 1-2.
- (٨٨) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei. Bd 25 a Nr, 135.
- (٨٩) Carmel, A. : The German Settlers ... p.p. 449-50.
- (٩٠) المصدر نفسه، ص ٤٥١-٤٥٤.
- (٩١) المصدر نفسه، ص ٤٥٥.
- (٩٢) هواة صهيون حركة سياسية يهودية استهدفت تنظيم هجرة اليهود من أقطار أوروبا الشرقية إلى فلسطين. وقامت بإنشاء المستعمرات اليهودية الأولى في البلاد بين عامي ١٨٨١ و١٩٠٤.
- حول هذه الحركة انظر:
- حريس، صبري. تاريخ الصهيونية، ج ١، (١٨٦١-١٩١٧) مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٧٧، ص ١٠١-١٤٢.

Carmel, A. : The German Settlers ... p.p. 455-8. (٩٣)

(٩٤)

(٩٥)

(٩٦)